سبيل الرشاد



السيد سامي خضرة



دار المحجة البيضاء

سبيل الرشاد



سبيل الرشاد

السيد سامي خضرة

دار المحجة البيضاء

الطبعة الثالثة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ISBN: 978-9953-567-97-6





الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com



إهداء

إلى الــالكين المــافرين، المعروفين عند أهل الــماء...

المجهولين عند أهل الأرض...

إلى الباحثين عن سُبُل الرشاد... للفوز والنجاة.

أرفع هذه الوريقات

سامي خضرة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد لله، أحمده استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته، واستعصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته، إنه لا يضل من هداه، ولا يفتقر من كفاه، وصلى الله على محمد وآله الكرام...

هذا الكتاب، كأخيه «آداب السلوك»، كُتب لا ليُنشر، بل ليُذاع عبر إذاعتنا «إذاعة النور»...

ويشاء الله تعالى أن يُخرجه كتاباً...

* * *

والدين ما جاء إلا لتزكية النفس الأمّارة بالسوء... وليس وراء ذلك شيء...

أما طريقة كتابته:

فقد كنت أنظر إلى نفسي وما فيها... ثم أكتب لها علاجاً تحت عنوان «سبيل الرشاد»... ولعلَّ غيري استفاد من ذلك أكثر من نفسي...

* * *

ما نفع المرء لو ادعى أنه عامل للإسلام وعالم بالإسلام.. وأنه من أولياء الله المقرَّبين... ما نفع ذلك، وهو يرى في نفسه كِبراً أو حسداً أو رياءً... فلا دنيا ربح، ولا آخرة فاز.

أخي:

أنت في دنيا دنية... نفسك فيها فاضحة وخسارتك في الآخرة فادحة... إن لم تُقوِّم اعوجاجها... فلا بد لك أن تتحسن... وإلى نفسك أن تتحصن...

أما الذي بين يديك، فهو قليل من كثير، ونقطة من بحر:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فلا تكونن ممَّن ﴿...أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2] والعاقبة للمتقين.

جبل عامل الأشم

١٥ ربيع الأول المبارك ١٤١٤

سامي خضرة

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٧.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٩

وجوب تزكية النفس

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق النفوس وسوَّاها فألهمها فجورها وتقواها، والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله، المصطفى محمد ﷺ الذي بعثه سبحانه وتعالى ليتمِّم مكارم الأخلاق ويكون الفرد الأكمل من بين كل العباد، وأمرنا سبحانه وتعالى أن نتّخذه قدوة ومثالاً لنكون الأمناء والأولياء على سيرة الأنبياء عليهم السلام، فنرثهم بأعمالنا لا بأقوالنا فقط، ونكون مسلمين إبراهيميين حقاً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ﴾[1].

الأنبياء يُهذِّبون أتباعهم:

فالأنبياء جميعاً هُذِّبت نفوسهم، وطُهِّرت قلوبهم.. وعملوا على أن يكون أتباعهم كذلك على نهجهم، فأشرفوا بأنفسهم على تهذيب أتباعهم وتزكيتهم وتأديبهم وتعليمهم الأخلاق العالية والأعمال السامية حتى يميّزوا على غيرهم من بني البشر. وإلا فما الفرق بين المؤمن وغيره إن كانت أعمالهما واحدة؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

وها هو رسول الله ﷺ يقف مخاطباً حبيبه أبا ذر، قائلاً: «يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تحاسب، فهو أهون لحسابك غداً، وزِن نفسك قبل أن توزن، وتجهز للعرض الأكبر، يوم تُعرض لا تخفى على الله خافية»[١].

بعض وجوه تهذيب النفس:

تخيّل نفسك، أيها الأخ الكريم، لو كنت في زمن رسول الله ﷺ أفلا يأمرك بالخير والبر والإحسان وحسن الخُلق والصبر وكظم الغيظ وكفِّ الأذى، والرأفة، والرحمة والحِلْم، والتواضع، والإحسان للمحتاجين، وخدمة المساكين، وحبّ المؤمنين صدقاً؟

ألا تعتقد أيها الأخ الحبيب أنك لو تشرَّفت بلقاء رسول الله ﷺ لكان نهاك عن الغضب، والرياء، والغيبة، وسوء الخلق، والتكبُّر وأفعال المنكر كلها؟

أفلا تلاحظ معي يا أخي، أن الله سبحانه وتعالى خاطب نبيه قائلاً له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

ولقد اختار الله هذه الصفة من النبي ﷺ لتخلد إلى يوم القيامة، بالرغم من أن شخصية الرسول ﷺ كانت كمالاً، في سائر الصفات الخُلقية.

إنَّ مسألة تهذيب النفس لا تتعلق بجماعة أو بفئة أو بطبقة، كما يعتقد البعض، أو كما يوصي بذلك أتباع بعض الأديان

---

(١) ميزان الحكمة: ح٣٨٤٨، ووسائل الشيعة: ج١٦، ص٩٨، ح٢١٠٨٠، وبحار الأنوار: ج٧٤، ص٨٤، باب ٤٨، ومكارم الأخلاق: ص٤٦٥.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

المشركة. بل هي تتعلق بكل فرد أسلم وجهه لله مشرّفاً باتِّباع دين الإسلام. معتزّاً بالانتماء إلى أمَّة المصطفى محمد ﷺ.

تهذيب النفس واجب شرعي:

فلا تستغرب، يا أخي، لو علمت أن الفقهاء رضوان الله تعالى عليهم، قد أفتوا بوجوب تهذيب النفس على كل مكلَّف، ومن أصرَّ على خلاف ذلك فهو مأثوم شرعاً، مُدان أمام رب العالمين سبحانه وتعالى.

واعلم أن ليس لك فضل على أحد من المؤمنين إلا بقدر ما تقدم باكتساب الصفات الخُلقية، واجتناب المعاصي والذنوب، فها هو أحد المؤمنين الملتزمين يأتي إلى رسول الله ﷺ مستفسراً عن نوعية الإيمان المفضلة والمحببة أكثر، فيقول: «يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيماناً؟».

فيجيبه رسول الله ﷺ بقوله: «أحسنهم خُلُقاً».

كان الجواب حاسماً وبعيداً عن أي شبهة أو التباس، حتى لا يتفاضل المؤمنون بعضهم على بعض، بالحَسَب أو النَسَب أو المال أو القوة.. ولتكون المفاضلة بحسن الخُلُق فقط.

صلَّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله أن هَدَيْتنا بهذا الهدي فزدتنا شرفاً وعزَّة وكرامة بين الناس، في الدنيا، وبين الأولين والآخرين في الآخرة.

صلَّى الله عليك يا رسول الله وأنت تتواضع وتعلّمنا التواضع.. فبالرغم من أنك أكمل العباد خلقاً وأعلاهم درجة، نراك تدعو الله سبحانه وتعالى ليزيدك هذا الفضل، حيث روي عنك قولك: «اللَّهمَّ

قد حَسَّنْتَ خَلْقي فحسِّن خُلُقي. . اللَّهمَّ إنِّي أسألك الصحة والعافية وحسن الخُلُق».

فلماذا لا نكرر معك هذا الدعاء؟!

ولماذا لا نسأل الله سبحانه حسن الخلق كما كنت تفعل؟. . وأنْتَ مَن أنت في العلو والرفعة والسمو. . . ونحن مَنْ نحن! الغارقون بذنوبنا، المستهلكون في آثامنا، الغافلون عن مصيرنا.

سوء الخلق يُفسد العمل:

كيف لا نسعى لاكتساب مكارم الأخلاق التي أوصيتَ بها فنقترب رويداً رويداً من درجة الصالحين والسالكين والعارفين، فنقلّد أعمالهم ونسعى إليهم. . وقد أوصى علماء الأخلاق بذلك في بداية السفر إلى الله سبحانه.

فيا أخي المؤمن، اعلم أن أعمالك المختلفة التي تظنَ بها خيراً، مرتبطة في صلاحها أو فسادها بحسن الخُلق أو بسوئه، حيث روي أنَّ «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل».

تصوَّر أنَّ العسل تضرب به الأمثال، في طيب مذاقه، وحلاوة طعمه ثم يُفسد بسرعة إذا جعل فوقه القليل من الخل، وهكذا كل أعمالك، إذا داخلها سوء الخلق، كالرياء والعجب مثلاً، فإنَّها تذهب هباء منثوراً. .

تصوَّر أنَّ صلاتك، وصومك، وحجَّك، وجهادك، وسائر أعمالك، مرهونة بحسن الخلق لتثاب وتؤجر عليها. . أو بسوء الخلق ليضرب بها عُرض الحائط وتكون نسياً منسيّاً.

علينا إذاً أن نتذكر أموراً ثلاثة، نستفيدها مما تقدم، حتى لا تكون هذه الكلمات حجَّة علينا بل حجَّة لنا:

أولاً: إن تهذيب النفس وتزكيتها هما من دأب أنبياء الله ورسله والصالحين من عباد الله عبر التاريخ.

ثانياً: إننا بقدر ما نتقدم في هذه المقامات بقدر ما نقترب من رسول الله ﷺ الذي ما بعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق.

ثالثاً: إن كل أعمالنا في الدنيا يرتهن ثوابها في الآخرة بانتهاج هذا المنهج وسلوك هذا المسلك.

«اللَّهمَّ صلِّ على محمد وآله وبلّغ إيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال، اللَّهمَّ وفِّر بلطفك نيّتي، وصحح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسدَ منِّي، اللَّهمَّ صلِّ على محمد وآله واكفني ما يشغلُني الاهتمام به واستعمِلني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيَّامي فيما خلقتني له وأغنني وأوسع عليَّ في رزقك ولا تفتنّي بالنظر، وأعزَّني، ولا تبتليني بالكِبر، وعبدني لك، ولا تُفسد عبادتي بالعجب، وأجر للناس على يدي الخير، ولا تمحقه بالمن، وهب لي معالي الأخلاق واعصمني من الفخر، اللَّهمَّ صلِّ على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة إلاَّ حططتني عند نفسي مثلها، ولا تُحدث لي عزّاً ظاهراً إلاَّ أحدثت لي ذلَّة باطنة عند نفسي بقدرها..»[١].

---

(١) من دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام. انظر الصحيفة السجادية: ص٩٣ الدعاء ٢٠.

كيف نعرف عيوب أنفسنا

لا بدَّ لنا أخي القارىء من معرفة عيوب أنفسنا حتى نبدأ بعلاجها لأن الداء إذا عُرف، عرف الدواء.

معرفة الداء ضرورةٌ لمعرفة الدواء:

وبما أن تهذيب النفس وتزكيتها واجب على كل إنسان، فلا مفر له من أن يقوم بالتفتيش عن طرق معرفة عيوب النفس ونقاط ضعفها، وفي هذا المجال يذكر علماء الأخلاق سبلاً ثلاثة نستطيع من خلالها أن نحدد بدقّة عيوب أنفسنا.

هذه الطرق الثلاث من السهل أن نتعلّمها، ولكن العلم في مثل هذه الأمور فقط، لا يكفي إن لم يكن هناك قرار حاسم وجازم في الأخذ بها، ولأن إهمالها سيؤدي إلى استفحال أمراض النفس وأهوائها.. وبالتالي يكون الهلاك الأبدي، لأن هلاك الروح أشد وأفدح من هلاك الجسد.

إن هلاك الجسد فيه خسارة الدنيا فقط، أما هلاك الروح ففيه خسارة الدنيا والآخرة واستحقاق العذاب الدائم والفراق الأليم، الذي يصفه أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل بقوله: «فهبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟!».

فمرض النفس وانحرافها أشد إيلاماً من مرض الجسد ووجعه، كما هو واضح من خلال مشاكلنا وهمومنا اليومية.

إذاً فما هي الطرق الثلاث النافعة والناجعة لكلّ واحد منّا لمعرفة عيوب نفسه؟!.

وهل يمكن لنا جميعاً أن نتبعها ونأخذ بها أم هي بمقدور بعضنا فقط؟!

الطرق الثلاث لتهذيب النفس:

الحق يقال: إنَّنا جميعاً بحاجة لمعرفة هذه الطرق التي نستطيع أن نطبقها إذا أردنا ذلك وأخلصنا النيَّة لله تعالى. وهذه الطرق هي:

أولاً: أن يتخذ الواحد منَّا أخاً مراقباً لأعماله، صادقاً، ورعاً، مخلصاً، متبصّراً في أمور الدين، حريصاً على رضى الله سبحانه، لا يتملّقه ولا يداريه، وذلك ليدله على عيوبه.

ثانياً: أن نتخذ قدوة لنا نتبعه في سائر أعمالنا: حركاته وسكناته إذا توفر لنا ذلك، وإن كان من الصعب وجود مثل هذا النموذج بسهولة بحسب الأمكنة والأزمنة والتوفيق.

ثالثاً: أن ننظر إلى عيوب الناس التي ننتقدهم من أجلها، ولا نريدها لهم، فمن باب أولى أن لا نرضى هذه الأمور لأنفسنا أيضاً كما لا نرتضيها لغيرنا.

أ ـ الطريقة الأولى:

إن الطريقة الأولى التي نكتشف بها عيوبنا الخُلُقية، هي أن يتخذ كل واحد منَّا أحد إخوانه أو أصدقائه، كرقيب وناصح له بكل

جدّية وإخلاص، ليذكر له عاداته السيّئة وأعماله القبيحة وتصرّفاته أو كلماته المنبوذة، ويشير إليها لا تشفّياً أو شماتة، بل حبّاً وحرصاً عليه وعلى دنياه وآخرته، وسمعة الدين وصيت المؤمنين.

ولا شك أنَّ هذا الأخ الذي نريد أن نختاره في هذا الموضع الهام والخطير، يجب أن تتوافر فيه صفات التديّن والصدق والورع والتقى والإخلاص وعدم المجاملة والخوف من إظهار الحق.. لأن الذي يحبّك صدقاً هو الذي لو رأى عقرباً في ثيابك لدلَّك عليه حتى لا يؤذيك، وليس من الحب والإخلاص أن يسكت عن ذلك ليوقع بك الأذيَّة، فكيف يا ترى لو كان العقرب سينال من نفسك وروحك وطهارتك وعبادتك؟ لا شك أن الخطورة عندها تكون أعظم وأكثر هولاً.

ومن الأفضل أن يكون هذا الأخ المؤمن ممن عرفك منذ مدة طويلة، كسنوات مثلاً، وكلما كانت أطول كانت أفضل، حتى يكون أبصر بتصرفاتك، وأعمالك وطريقة عيشك وتعاملك مع الآخرين.

وعليك أن تظهر له بصدق أنك تودّ الاستماع إلى ملاحظاته وتنبيهاته بلا تذمّر ولا حذر، وإذا ما دلَّك إلى شيء منها عليك أن تشكره شكراً صادقاً على ما أرشدك إليه، بعد أن تشكر الله سبحانه وتعالى أن سخَّر لك عبداً من عبيده ليكون عيناً ساهرة عليك، يذكِّرك إذا نسيت، ويوقظك إذا سهوت، وينبّهك إذا انحرفت، ويقوِّم اعوجاجك إذا رأى فيكَ اعوجاجاً.

ونتذكر هنا الرواية المباركة التي تقول: «رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي».

وهذا الأسلوب، من أفضل الأساليب الناجحة والمجرّبة لمعرفة عيوب النفس وعوراتها. وهنيئاً لمن كان له صديق كهذا الصديق.

ب ـ الطريقة الثانية:

أمَّا الطريقة الثانية التي نكتشف بها عيوبنا الخُلُقية فهي أن نتّخذ قدوة لنا وأسوة حسنة، نتبعه في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وكيفية مأكله ومشربه وملبسه ومنامه وكلماته وجلساته وآدابه وصلواته وتعقيباته وسائر أعماله. وهذه القدوة يمكن أن تكون شيخاً أو عالماً أو مؤمناً أو جاراً صالحاً.. نشأ وترعرع وتربى وعرف واشتهر بالخير والصلاح بين القوم وفي منطقته... وهؤلاء عادة إذا توفروا فمن عادتهم أنهم لا يتحركون إلا طبق السنن والروايات التي وردت عن أنبياء الله سبحانه والمعصومين عليهم السلام.

وينصح علماء الأخلاق في هذا المجال بالتفتيش عن هذه النوعية من البشر وإن أضناك البحث إلا أن الفوز بواحد منهم تَتْبعه، يكون لك شيخاً أو مريداً أو أستاذاً، فيه خير الأولى والآخرة..

وورد في بعض النصوص أنهم أكثر ندرة من الكبريت الأحمر، إشارة إلى قلَّة وجودهم.

إنَّ هذه الطريقة من أكثر الطرق تأثيراً واختصاراً، في تهذيب النفس، لأنك ترى أمامك نموذجاً متحركاً فتقلّده تقليداً، وتكتسب منه بسرعة: كيف يصلّي، كيف يسجد، كيف يأكل، كيف يتحدَّث.. كيف ينام، الخ..

ولعلَّك تحظى بلقاء مختصر مع واحد من هؤلاء ولدقائق معدودة، ولكن يكون له التأثير البالغ في مجرى حياتك.. فكم من

الصالحين الذين ما زالت ألسنُ آبائنا وأمّهاتنا تذكر مقدار ورعهم، وعظيم احتياطهم، ومدى حرصهم على أمر الدين، وأخذهم بأمور الآخرة، واتباعهم سبيل الزهد.

كم من آبائنا وأمّهاتنا يذكرون لنا قصصاً عن الشيخ أو السيِّد أو الحاج الفلاني، وطريقة حياتهم، فترى أن أعمالهم موجودة وإن كانت أجسامهم مفقودة.

وتصوَّر نفسك لو حظيت مثلاً، بلقاء الإمام الخميني أعلى الله مقامه، لمدة عشر دقائق أو رافقته في سفر معيَّن، أو التقيتما صدفة في حجّ أو زيارة.. ألا تعتقد أن هذه المدة، مهما كانت قصيرة، لها تمام التأثير على حياتك، وأنك ما زلت تذكرها وتذكر بركاتها حتى الآن؟

فهنيئاً لمن وفّقه الله للالتقاء بواحد من هؤلاء أو من يقرب من درجاتهم هنيئاً لمن تشرّف بلقاء ومعايشة: السيد ابن طاووس أو السيد بحر العلوم، أو المقدس الأردبيلي، أو ملكي تبريزي، أو السيد الطباطبائي، أعلى الله مقامهم، ونشر في الجنان أعلامهم، وحشرهم مع الأحبّة محمد وآل محمد عليهم السلام.

ج ـ الطريقة الثالثة:

وتبقى الطريقة الثالثة التي نكتشف بها عيوبنا الخلقية ألا وهي أن نرى العيوب التي تنتشر بين الناس، فنتجنّبها لأننا نكرهها لهم، فالأحرى أن نكرهها لأنفسنا. فالعيوب التي تصيب نفوسنا هي نفسها التي تصيب سائر الناس، لأن النفوس البشرية، والأهواء والشهوات واحدة، والكل منَّا ترغب نفسه الأمَّارة بالسوء بحب الدنيا والمال

والرئاسة، والكل مهيّأ لأن يدخله الشيطان من باب الرياء أو العجب أو التكبُّر أو المال أو الجاه.

فأنت مثلاً ترى في بعض الناس أنهم كثيرو الكلام والثرثرة، فلماذا تتكلم كثيراً!...؟!! وتراهم أنانيين، فلماذا تكون أنانياً؟ وتنتقدهم لجبنهم أو لغيبتهم أو لريائهم أو لتكبرهم.. فلماذا تكون أنت كذلك؟!!

لماذا ترى عيوبهم ولا ترى العيوب ذاتها في نفسك، فترى القشّة في عين أخيك ولا ترى الجذع في عينك، فمثلك إذاً كمثل الطبيب الذي يداوي الناس وهو عليل. فعليك أن تجتنب كل ما تراه مذموماً من أخلاق الناس.. وهذه الطريقة هي طريقة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام في تأديب نفسه وتهذيبها. حيث سئل عليه السلام: «يا عيسى من أدّبك؟». فقال عليه السلام: «ما أدَّبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانَبْته».

فعلينا بتأديب أنفسنا قبل تأديب وانتقاد غيرنا، فلعلَّ عندنا ما هو أسوأ وأخطر ممَّا عند الآخرين.

ولقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك في نهج البلاغة بقوله: «وكفى أدباً لنفسك، تجنّبك ما كرهته لغيرك».

«.. إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمَّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل..»[١].

---

(١) من مناجاة الشاكين، للإمام زين العابدين عليه السلام. انظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٣، باب ٣٢ أدعية المناجاة.

وفي الختام: علينا أن نحذر الصفات المذمومة التي يجب أن نتخلص منها: إن كان بمساعدة أخ صديق، أو من خلال قدوة نتبعها، أو من خلال اجتناب ما نكره من صفات عند الناس..

كما علينا أن نعرف الحق فنتّبعه، وأن نعرف الباطل فنجتنبه.. فمن رحمة الله سبحانه علينا أن دلنا وأرشدنا إلى ما تقدم. فقد ورد في رواية مباركة: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصّره عيوب نفسه».

فهل يا تُرى سنوفق لمعرفة عيوب أنفسنا، وهل سنتشرف بتطهير قلوبنا، وتصفية نفوسنا فنحظى بنظرة ربَّانية إليها..

وهل ننصت إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: «قلوب العباد الطاهرة، مواضع نظر الله، فمن طهّر قلبه نظر إليه».

محاسبة النفس

العاقل يُحاسب نفسه:

من عادة كل عاقل مدرك في هذه الدنيا أن يحاسب نفسه دائماً في الأمور التي تتعلّق بتجارته أو أمواله أو ارتباطاته، لأن محاسبة النفس تجعل الإنسان يشخِّص، وبشكل وافٍ، نقاط ضعفه التي يُخشى عليه من خلالها.

والمؤمن الحقيقي الواعي المدرك لأبعاد الأمور وخلفياتها، المتيقن لأمور الآخرة ومجرياتها يبقى دائماً في حالة محاسبة مع نفسه، حيث يؤنبها على كل خطأ ارتكبته، وكل إثم اقترفته، ويوجّهها لكل خير فعلته، وكل معروف أتته رغبة في الثواب وحسن المآب. رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تُبدينَّ عن واضحة وقد عملتَ الفاضحة ولا تأمنن البيات وقد عملت السيئات»[1].

الشيطان بالمرصاد:

فالإنسان في حياته اليومية لن يُترك وحيداً يفعل ما أمره به الله سبحانه وتعالى، فيبقى مقيداً بالقيود المرضية، ويتحلى بالصفات العليَّة... بل إن الشيطان له بالمرصاد، يقف عند كل باب، يزين له

---

(١) الاختصاص: ص٢٥٢.

الدنيا، يرغّبه فيها، ويحزنه على فوتها، ويعجّله للأخذ من شهواتها، وإتيان منهياتها. فترى الشيطان وكأنه متفرّغ لإفساد العباد، وتنكبهم من جادة الصواب.

فها هو الشيطان قرب المال عند كسبه أو إنفاقه، وتراه أيضاً في العمل والشارع والمدرسة، والوظيفة والتجارة، وعند المال والنساء والجاه والمنصب والرياء والتعالي والكبرياء... وتراه إذا أصابك خير ينسيك ذِكْر الله تعالى. وإذا أصابك شرّ شكّك بالله تعالى واتّهمه في عدله، وإذا أصابك بلاء ثبّط من عزيمتك ونال من صبرك وأصاب حسن نيتك.. فتخسر الثواب وتستحق العقاب.. فضلاً على أنه لا يقدم شيئاً ولا يؤخّر شيئاً.

فأين نحن من أنفسنا ومحاسبتها؟!. وهل جعلنا لها حارساً يصونها، ومراقباً يردُّها إلى صوابها إذا جمحت، ويعدِّل طريقها إذا جنحت.

محاسبة النفس ضرورة:

ولا ينجو أحد من حبائل الشيطان إلا من عصمه الله سبحانه وتعالى. ولا ينجو أحد منها وخاصة المؤمنين الذين يقعد لهم كل مقعد، يتربص لهم، ويبادرهم من شهواتهم، ويغزوهم من مغرياتهم.

لذا ورد في بعض الروايات أنَّ مَنْ لم يحاسب نفسه لا يعتبر من أتباع وأنصار أهل البيت عليهم السلام.

فعن الكاظم عليه السلام: «ليس منّا مَنْ لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً، استزاد الله، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه، وتاب إليه». فالمؤمن قد يتعرض لسهام الشيطان الرجيم أكثر من غيره، لا

لشيء إلا لأنه مؤمن قد اختار طريق الرحمن وترك طريق الشيطان. فربما يأتيه الشيطان حتى في عباداته، الصلاة والحج والجهاد وذلك عندما يقنعه بالرياء فيسير معه، كأعمى البصيرة الذي يمشي مكباً على وجهه.

الحريص على دينه يُحاسب نفسه:

فالمؤمن المؤمن هو الذي يحاسب نفسه في كل يوم.. إن لم نَقُل مرات في كل يوم.. وهو الذي يشدّد عليها كأكثر ما يشدِّد الشريك على شريكه، وهو الذي ينهاها عن الهوى.. وفي أحيان كثيرة حتى عن المكروهات أو حتى المباحات لكيلا يقع في شهوة مستترة.. كل ذلك خوفاً من الله تعالى، ورجاء رضوانه، وتطلّعاً إلى جنَّته ودار مُقامه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1]. وقد وعد الله تعالى هؤلاء بحسن المقام: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾[2].

كما توعّد سبحانه الذين يتبعون الهوى بالسوء: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[3].

حاسِبْ نفسك:

والمؤمن هو الذي يعلم أنه مراقب من قِبَل الله تعالى[4]،

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٦.

(٤) لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤] ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

ومحاسب.. فيحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، فقد ورد في رواية مباركة عن رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، حاسب نفسك قبل أن تحاسب فهو أهون لحسابها غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهز للعرض الأكبر. يوم تُعرض، لا تخفى على الله خافية».

وجاء عن الصادق عليه السلام: «فحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، فإن أمكنة القيامة خمسون موقفاً، كل موقف مقام ألف سنة، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]»[2].

والمؤمن هو الذي يفلح في محاسبة نفسه وتزكيتها، ويعمل جاهداً من أجل ذلك، مستعيناً بالله تعالى على ذلك وسائله التوفيق. فها هو الرسول ﷺ كان كلَّما قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾، يقول: «اللَّهمَّ آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها، أنت خير من زكَّاها».

مؤمن لا يُحاسب نفسه!

كيف يمكن للمؤمن الذي يسير على طريق الصراط المستقيم أن يترك محاسبة نفسه، وهو يعلم يقيناً أن الشيطان قد رابط وكَمَنَ له، وهذا ما ذكره الله تعالى حكاية على لسان الشيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾[3].

إنَّه ينتهز الفرصة المناسبة للانقضاض علينا، والفتكِ بنا بأي

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) مستدرك الرسائل: ج١٢، ص١٥٥، باب ٩٥، ح١٣٧٦٣ ـ ٧.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان: ١٦، ١٧.

وسيلة أو طريقة استطاعها. ولا ننسى أن وسائل الشيطان متعددة ومتنوعة وله أعوان في الأرض كثر.

فيا أيها المؤمنون: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[١]. واعلموا أنَّ وعود الشيطان إن هي إلا غرور، لأوليائه وأتباعه وأنصاره، ليجعل العداوة والبغضاء بيننا. فلا تجعلوا للشيطان عليكم سبيلاً سهلاً يسلكها، وحاسبوا أنفسكم دائماً، وراقبوها، ولا تسيئوا إلى بعضكم البعض. ولا تفسحوا المجال للشيطان أن يوقع بينكم، من سوء ظن، أو خبث نيَّة، أو شهوة عابرة، أو غيرة منبوذة، أو طمع زائل، أو ميلٍ ظالم، أو بغيٍ ماحِق، أو حسدٍ قاتل.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٢] لأن أساليبه كثيرة. ولذا ورد في الدعاء المبارك عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «اللَّهمَّ إنَّا نعوذ بك من نزغَات الشيطان الرجيم ومكائده، ومن الثقة بأمانيِّه ومواعيده، وغروره ومصائده، وأن يُطمع نفسه في إضلالنا عن طاعتك، وامتهاننا بمعصيتك.. اللَّهمَّ وأشربْ قلوبنا إنكار عمله والطف لنا في نقض حيله..»[٣].

الحساب قبل النوم:

فالمؤمن في آخر نهاره، وقبل أن يضع رأسه على الوسادة لينام، ويموت الموتة الصغرى، عليه أن يستعرض في خزانة خياله، كل أعماله التي قام بها في ذلك اليوم: من كلام أو موقف أو نقاش

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.
(٣) الصحيفة السجادية: ص٨٥، الدعاء (١٧).

أو تجارة أو نظرة أو أذية أو احتقار أو اعتداء. . لِيزِن كل هذه الأمور بميزان العدل، كُلاً على حدة، فإن فعلَ خيراً، شكر الله سبحانه وطلب زيادة في التوفيق لغيره. وإن فعل شرّاً، استغفر الله سبحانه وطلب أنْ لا يعيده إلى أمثاله.

وينبغي أيضاً أن ننسى أفعال الخير التي قمنا بها ولا نكثر من ذِكرها حتى لا يؤدي بنا ذلك إلى الغرور أو تثبيط الهمم أو استكثار الخير. .

أما الذنوب ومهما كانت حقيرة وصغيرة، فلا بد أن نستعظمها ونشدِّد من شأنها ونخاف منها، حتى كأنها جبال فوق رؤوسنا تكاد أن تقع علينا.

نتذكر ذنوبنا ولسان حالنا يردِّد: «. . . سيدي، لو علِمَت الأرض بذنوبي لساخت بي، أو الجبال لصدتْني، أو السموات لاختطفتْني، أو البحار لأغرقتني. .».

في آخر كل نهار علينا أن نجلس للمحاسبة في المكان نفسه الذي ننام فيه، وكأننا جلوس في قبورنا ونحن نقول: «ارحم في هذه الدنيا غربتي، وعند الموت كربتي، وفي القبر وحدتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نشرت للحساب بين يديك ذُلَّ موقفي. .». ثم نردّد هذا مرة ثانية ونتذكر أننا نحن الذين نُحاسب أنفسنا. . أما في ذلك اليوم فإن الحسيب هو الرقيب وهو الشاهد وهو الحاكم.

«. . . وإذا نشرت للحساب بين يديك ذلَّ موقفي واغفر لي ما خفي على الآدميين من عملي، وأدِم لي ما به سترتني. .».

نحاسب أنفسنا في آخر النهار ونحن صادقين معها. . فنعاتبها

ونسألها: يا نفس لمَ تتمادين في الذنوب، وهل تظنين أنَّكِ خالية من العيوب، أو أنَّك عن الخالق كالمحجوب، يا نفس، أيتها المسكينة الضعيفة، أليس مصيرك إلى الموت، والزمن حاملك إلى القدر المحتوم؟ إذا كان ادّعاؤكِ منع الموت، عن نفسك، فامنعيني النوم!! ولن تفعلي. وإذا كان ادعاؤكِ منع البعث والنشور، فامنعيني اليقظة عنك!! ولن تفعلي. إذاً إلى الموت أنتِ سائرة، وإلى النشور أنتِ صائرة.

ومن كان الزمن به عامل، فما أسرع الملتقى!!! وما بعد الموت أعظم وأدهى.

«فمن يؤنس في القبر وحشتي، ومن ينطق لساني إذا خلوت بعملي، وساءلتني عمَّا أنت أعلم به منِّي، فإن قلتُ نعم فأين المهرب من عدلك، وإن قلتُ لم أفعل، قلت ألم أكن الشاهد عليك»[1].

فلنحاسب أنفسنا تخفيفاً، ولنحاسب أنفسنا تذكيراً، ولنحاسب أنفسنا استعداداً، على الأقل مرة في اليوم، قبل النوم:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

(١) من دعاء الحزين للإمام زين العابدين عليه السلام. انظر بحار الأنوار: ج٨٤، ص٢٨٨، باب ١٢، مصباح الكفعمي ص٥٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

آثار الذنوب

الحمد لله رب العالمين، الذي لا تضره ذنوب المذنبين وأفعال العاصين.

إنَّ الله سبحانه وتعالى لم يأمرنا بشيء ولم ينهنا عن شيء إلا لمصلحة لنا في هذا الأمر أو النهي.

والمخالف للأحكام الشرعية عاصٍ يستحق العقاب بمقتضى العدالة الإلهية التي لا تطغى، والغنية عن العباد وعذابهم.. ولكن ارتكاب المحرمات وإتيان الذنوب مخالف لطبيعة العلاقات الإنسانية، والسنن الفطرية التي أودعها الله سبحانه وتعالى فينا.

فالمرتكب للذنوب والمحرمات فضلاً عن أنه يخسر الآخرة. وذلك هو الخسران المبين.. إلا أنه أيضاً يجر التعاسة إلى نفسه والوبال على حياته، فيعيش منغصاً قلقاً حزيناً نتيجة ما اقترفته يداه.

فللذنوب المرتكبة آثار وتبعات كثيرة وعديدة تظهر على حياة الإنسان ونشاطه ومستقبله وعقله وعلاقاته الاجتماعية وراحته النفسية وضميره الحي وغيرها من النواحي التي تؤثر تأثيراً مباشراً على وجوده واستقراره.

فقد نطقت الآيات والروايات والأخبار والآثار أن للذنوب بصمات تتركها على الظاهر من وجود الإنسان وباطنه..

وبتحديد أدقّ وأوضح، فإن للذنوب آثاراً على قلب الإنسان وعقله وعلمه ونعمته ونفسه ومبادئه وما يصيبه من آفات وآلام.. ونحن نرى ذلك بوضوح، إذا تأملنا بالآتي: فللذنوب والمعاصي آثار مؤلمة لأنها بطبعها مخالفة لمشيئة الله وأوامره ونواهيه التي لا شك أنها جاءت لمصلحة الإنسان وإن لم يظهر ذلك له.

آثار الذنوب على القلب:

فالقلب في صفائه وطهارته يشكل صفحة بيضاء نقية، تزداد نوراً وتألّقاً بالعبادات والطاعات وحسن النيَّة والتوجّه والإخلاص.. كما أنها تظهر عليها الآثار السوداء القاتمة لمجرّد ذنب صغير أو معصية عابرة.. فكيف إذا كان الذنب كبيراً والمعصية مقيمة!.

وإذا ابتلي الإنسان بذنب فهو يظهر على شاشة القلب بسرعة ويمكن أن يغلب البياض الأصيل على السواد الطارىء، إذا صفت النيَّة وصدقت التوبة والإنابة وكان الاستغفار بشروطه.

وأما إذا أُتْبِعَ الذنب بذنب آخر، فإن ذلك يساعد على تمكين السواد والظلمة لتؤثر على شكل القلب ومحتواه وما يتصل به من عمل أو قرار.. مما قد يؤدي، لا سمح الله، إلى الشرك والضلال.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً».

وفي مضمون هذه الرواية روايات كثيرة أيضاً. وبما أن القلب يؤثر على جوارح الإنسان، فإنه إذا أحيط بالمعاصي تصاب أعضاؤه وإحساساته وعواطفه بخلل أو ارتباك أو سوء أو شلل، كما قد

يحدث لليد، أو اللسان، أو الوجه، أو الدمعة التي قد تختفي من الوجود أساساً.

أفلا نلاحظ جميعاً، يا أخي وحبيبي أن فترة تمر علينا لا تدمع العين فيها دمعة واحدة في مجلس عزاء حسيني أو دعاء مؤثر؟.. أفلا نتساءل عن هذه الظاهرة، وما هو سببها؟!.

خذ جوابها يا عزيزي من لسان علي عليه السلام حيث يقول: «ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب».

أعَرفْنا الآن لِمَ لم نبكِ منذ فترة طويلة!؟!..

آثار الذنوب على الأعضاء:

إن القلب المقترف للذنوب، يظهر ارتباكه أحياناً كثيرة على الأطراف واللسان، فيتخبّط ويتلعثم من دون إرادة، وإليك توضيح ذلك أيضاً على لسان طبيب نفوسنا علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «لكل ظاهر باطن على مثاله، فما طاب ظاهره، طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه»[٢].

ترى! ماذا ينفع العبد الذي يتمظهر بمظهر المؤمن المطيع، وهو يعلم أنه كاذب في حقيقة أمره؟ أليس الأجدى به والأنفع لدنياه

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١٨، ص١٣٧، ح٢٦.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٤.

وآخرته أن يصلح بينه وبين الله ليصلح الله تعالى بينه وبين الخلق. فمن أصلح جوَّانيه أصلح الله برَّانيه، ومن أراد وجه الله أناله الله وجهه، ووجوه الخلق.

آثار الذنوب على العلم:

هذا موجز من آثار الذنوب على القلب والجوارح. أما آثار الذنوب على العلم فحاصلة، لأن القراءة والمطالعة والبحث والدراسة والكتابة بحاجة إلى توجّه وانتباه وتيقّظ، وهذا لا يكون في حالات القلق والخوف والحذر التي ترافق الذنوب عادة.

من هنا فإننا نرى صنفاً من الناس يقرأ دون أن يفهم، ويسمع دون أن يعي، ويحفظ من غير أن يضبط، ويطالع من دون أن يستوعب...

بل أكثر من ذلك: نرى صنفاً من الناس يسلبون العلوم التي كانوا قد تعلموها، والعياذ بالله، لاستغراقهم في الذنوب وتماديهم في المعاصي، فيتلهون عمَّا كانوا قد تعبوا في جمعه وحفظه، أو أنَّ الله سبحانه يسلبهم تلك العلوم لكي لا يستعملوها في إضلال الناس، أو لهوى الدنيا، أو للتستر وراءها.

ويصوِّر هذه الحالة المؤلمة حديث شريف ورد عن النبي ﷺ يقول فيه: «اتّقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات، إن العبد ليذنب الذنب، فينسى به العلم الذي كان قد علمه»[١].

وليكن معلوماً أن المشاكل العامة: السياسية والاقتصادية، لا

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٧٧، باب ١٣٨.

تؤثّر على التحصيل العلمي بقدر الأسباب النفسية المتردّية الناتجة عن ارتكاب الذنوب التي لا تؤثر فقط على تحصيل العلم بل تساهم في نسيان ونقدان ما كان قد علِمَه.

آثار الذنوب على العقل:

وأما آثار الذنوب على العقل، فلأنها منافية للأسس العقلية والمنطقية، والدلائل الواضحات الباهرات في وجوب شكر المنعم سبحانه وطاعته، وحرمة مخالفته.

والعقل السليم يحكم بوجوب تجنب المعاصي لمجرّد احتمال العقاب والجزاء، فكيف يخالف كل هذه القواعد رغبة في شهوة عابرة زائلة!.

يقول رسول الله ﷺ: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يرجع إليه أبداً».

آثار الذنوب على الأرزاق:

وللذنوب أيضاً آثار سلبية على الرزق والنعم، فبالشكر تدوم النعم. وبديهي أن المعصية ليست من الشكر، بل من الكفر. وكثير من النِعم مرتبطة، في دوامها وبقائها واستمرارها أو زيادتها، بالطاعة لله سبحانه. فاقتراف المعصية يؤدي إلى اضمحلالها وزوالها، إلى درجة أن بعض الروايات تشير إلى أنه ما من نعمة تُفقد إلا نتيجة ذنب يعمله.

فعن الصادق عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة قط، فسلبها إيَّاه، حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب»[(١)].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٣٩، باب ١٣٧.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «احذروا الذنوب، فإن العبد يذنب الذنب فيحبس عنه الرزق»[١].

آثار الذنوب على العبادة:

أما آثار الذنوب على العبادة فهي واضحة جداً، خاصة إذا لاحظنا أن المذنب، بذنبه، منصرف عن العبادة والطاعة والواجب والمستحبات.. فضلاً عن الآثار المؤلمة المقيمة التي ترافقه إلى أجل ليس بقليل.

من هنا يلاحظ المذنب جفاءً في صلاته وصومه وصدقته.. وقد يؤدِّي ذلك إلى سوء في التوفيق في تركه لبعض الواجبات أو المستحبات، كما ورد في رواية عن الصادق عليه السلام: «إن الرجل يذنب الذنب، فيُحرَم صلاة الليل، وإنَّ العمل السيّىء أسرع في صاحبه من السكِّين في اللحم»[٢].

آثار الأعمال الغَيْبِية:

ونلاحظ من مجموع ما تقدم أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني، فإذا سار الإنسان بحسب ما تقتضيه الفطرة السليمة نزلت عليه الخيرات وفتحت عليه البركات. قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٥١، باب ١٣٧.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٢، ح١٦. وبحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٣٠، باب ١٣٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

وبالمقابل، إذا أفسد الناس أعمالهم كان لذلك تأثير عظيم عليهم، حتى في البرِّ والبحر. قال جلَّ من قائل:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

بعد هذا هل من حقّنا أن نتساءل عن تسارع المصيبات علينا أو إحاطتها بنا، والسبب أنفسنا؟!

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾[2].

إنَّه في الحقيقة بما كسبت أيدينا، وإن كان الله سبحانه يعفو عن كثير، بلطفه وشمول رحمته.

والتمادي في الذنوب، أحياناً كثيرة، يؤدِّي بالإنسان إلى مصائب وفواجع لم يكن ينتظرها أو يتوقعها، فتُنَغِّص عليه معيشته وتنال من استقراره..

الذنوب تجلب البلايا:

فلا نستغرب إذا سمعنا أحياناً بأنواع جديدة من الأمراض، أو الابتلاءات، أو المشاكل المستعصية، والظواهر المصيّرة، على صعيد الفرد والمجتمع، لأن اختراع أنواع جديدة من الذنوب استكباراً على الله سبحانه وتعالى لا يمنعه من أن يبتلينا بأنواع جديدة من الابتلاءات لم نعهدها من قبل. وسلام الله على الإمام الرِّضا حيث

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

يقول: «كلَّما أحْدَث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدَث الله لهم بذلك من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[١].

من خلال هذه الرواية المباركة، نستطيع أن نفهم ظواهر بعض الأمراض المستعصية التي ظهرت مؤخّراً في العالم، كمرض «الإيدز»[٢] وبعض أنواع السرطان، وأمراض أخرى لم تُعرف أسبابها، فضلاً عن علاجاتها.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٣].

الذنوب وإهلاك القرى:

ونفهم أيضاً، حالات الخراب الشامل لبعض القرى، والمدن في لبنان وغيره، والتي اشتهرت بفسقها وفجورها، إذا رجعنا إلى قوله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٤].

أيها المؤمنون الأحبّاء، إنَّ تمادينا في ارتكاب المعاصي واستمرارنا في إظهار المنكر وتجاهرنا بالذنوب كلّ هذا سيجعله الله سبحانه، وبالاً وخسارة علينا في الدنيا، ناهيكم عن عقاب الآخرة.

هكذا حصل بالذين من قبلنا: أُهلكوا بذنوبهم. وهكذا يحصل بنا: نُهلك بذنوبنا، أهلكوا بالرغم من قوَّتهم في الأرض، ورزقهم الواسع، والحضارة المزيّفة.. كل ذلك بذنوبهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٥، ح٢٩، وبحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٤٣، باب ١٣٧.

(٢) الإيدز: لفظة إنكليزية تعني: ضعف مناعة الجسم.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ...﴾[1].

نماذج من المعاصي المنتشرة:

أيها الأخوة المؤمنون: إن الظلم والبغي والقتل وشرب الخمر والزنا ونطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، تؤدي إلى تغيُّر النِّعم، وتورِث الندم، وتنزل النقم، وتحبس الرزق، وتعجل الفناء، وتردُّ الدعاء، وتمنع غيث السماء.

أيها الأخوة المؤمنون: إن الذنوب تؤثّر على المسيرة الكونية، فلسنا وحدنا في هذا الكون، بل هناك مخْلوقات أخرى معنا يصيبها بسبب ذنوبنا بلاء كثير. ففي عهد سليمان بن داوود عليه السلام أصاب الناس قحط شديد، فشكوا ذلك إليه، فلمَّا صلَّى الغداة مضى ومضوا، فلما أن كان في بعض الطريق، إذا هو بنملة رافعة يدها إلى السماء، واضعة قدميها إلى الأرض وهي تقول: «اللَّهمَّ، إنَّا خَلْق من خَلْقِكَ، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب بني آدم». فقال سليمان عليه السلام: «ارجعوا فقد سقيتم بغيركم». فَسُقُوا في ذلك العام ما لم يُسقوا مثله قط[2].

أيها المؤمنون: لعلَّ الله سبحانه يحجب عنَّا العذاب، لوجود أطفال رُضّع، أو شيوخ رُكّع، أو بهائم رتّع، أو شباب خُشّع.. فلنرحم أنفسنا ولْنَتَّقِ فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منَّا خاصة، لأن البلاء إذا نزل عمَّ.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦.

(٢) الكافي: ج٨، ص٢٤٦، ح٣٤٤. بحار الأنوار: ج١٤، ص٢٤٧، باب ٧

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم.
اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم.
اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم.
اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء.
اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء»[١].

---

(١) من دعاء كُميل لأمير المؤمنين عليه السلام. انظر مصباح الكفعمي: ص٥٥٥.

التوبة

الحمد لله رب العالمين، غافر الذنب، وقابل التوبة عن عباده المذنبين، إذ من رحمة الله سبحانه على العباد، أن فتح لهم باباً سمَّاه التوبة، وأمرهم بدخوله، فقال: ﴿...تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[1]. ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

التوبة رحمة إلهية:

والتوبة بحدِّ ذاتها من المعطيات الربَّانية، والهبات الإلهية التي تفضَّل الله بها على العباد.. ولولاها لا ينجُو أحد من بني آدم من عذاب أبدي، فما من واحد من البشر إلا وقد ارتكب ذنوباً، بإيعاز من نفسه الأمَّارة بالسوء، وهو يأمل من الله الرحمن الرحيم جلَّ وعلا، أن يتجاوز عنه ويغفر له ما قد سلف، ويزيده من فضله. وهل باستطاعتنا تصوُّر أن أحداً منّا ينجو من العذاب المهين بعمله؟!. فلا بد لنا، للنجاة، من رحمة الله التي تظهر بعض تجلياتها، في فتح باب التوبة أمام العباد.

وكما أنَّ المرء، بطبعه، يتجنَّب الأمراض التي تؤذي الجسد

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١١. ظالم لجهله بحقّ ربّه وعيب نفسه.

وقد تهلكه، وتجعله يموت ويخسر الدنيا، كذلك كل عاقل يتجنب أمراض نفسه، من الذنوب والآثام، التي لا تجعل له نصيباً في الآخرة وتتركه من الخاسرين، حيث لا شيء يُجْبر أو يُعوَّض.

فالذنوب المقيمة، والتوبة المؤجّلة، تجعل الإنسان يأنس بالشهوات ويفتش عن المنكرات، فتتوالى عليه الكربات، ويبعد عن لقاء الله عزَّ وجلَّ، ويُجازى بالاحتجاب عنه سبحانه، وهو يعلم: أن لا مفرَّ ولا مهرب من لقائه سبحانه وتعالى على كل حال.

فلماذا يا ترى، يتطوَّع هذا الإنسان الجاهل ليتمادى في المعاصي؟

التائب مفلح:

ولماذا لا يسرع إلى التوبة التي دعاه إليها، قبل فوات الأوان، فيكون من المفلحين الرابحين الفائزين في روْح وريحان، وجنَّة ونعيم؟! ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

وكيف بك وأنت تسعى جاهداً عند ملك من ملوك الدنيا ليصطفيك من بني قومك ويجعلك عنده حبيباً وقريباً؟

وكيف إذا نلت هذا المقام، عند من هو أعظم من الملك؟! بل كيف إذا دعاك هو لذلك؟!

التائب حبيب الله تعالى:

وكيف بك وأنت تنصت لملك الملوك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١، والآية مدنية، خاطب الله بها مَن آمن وجاهد وصبر وهاجر.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

يقول رسول الله ﷺ: «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[١]، و«ليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة»[٢].

أفلا تسكن نفسك، ويهدأ روعك، وتطمئن جوارحك لتوبة صادقة، وأنت تعلم أن مَنْ أحبَّه الله لا يعذبه. بل يشير إلى جوارحه وملائكته كي تستر عليه ولا تفضحه؟!

وقد جاء عن الصادق عليه السلام قوله: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أحبَّه الله فستر عليه»، قيل: « وكيف يستر عليه»؟ قال عليه السلام: «يُنسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي الله إلى جوارحه، وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله تعالى، حين يلقاه، وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[٣].

وفي هذا المعنى أيضاً رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام.

لماذا تسويف التوبة:

والعجب من المسوِّف الذي يؤخّر التوبة، وهو لا يعلم متى ينزل به الموت، ويأخذه على حين غرَّة وغفلة من أمره، فيندم متأخراً حين لا ينفعه الندم. فمن تناول الطعام السام شُبهةً، فإنه يسارع إلى التخلص منه، أو تناول المضادات الحيوية له وبسرعة، لأن الوقت في مثل هذه الأمور هو الأثمن والأخطر. . ولا يُعوَّض.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٧٥، باب ٨٦، وبحار الأنوار، ج٦، ص٢١، باب ٢٠

(٢) ميزان الحكمة: ح٢١١٨، ووسائل الشيعة: ج١٦، ص٧٥، باب ٨٦. وبحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٢٥، باب ٤١.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٧١، باب ٨٦. وبحار الأنوار، ج٦، ص٢٨، باب ٢٠.

وجوب التوبة فوري:

فالتوبة هنا يجب أن تكون فورية، للتخلص من الذنوب والتبعات وما دام هناك مهلة من العمر، فلا بد من المسارعة فيها، إلى توبة نصوح صادقة حقيقية، نتندم فيها ونحزن على ما فات من العمر. عازمين على عدم العودة أبداً. لأن ملك الموت، إذا ظهر للعبد، أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين.. ومهما فعل العبد ليضيف ولو ساعة واحدة لتدارك تفريطه فإنَّ ذلك لا ينفع أبداً: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[(١)].

وعندها يعظم التحسر والألم والحزن، على كل وقت ذهب هدراً في هذه الحياة الزائلة، ولم يتزوّد فيه بالصلاح، أو بالموعظة أو الصدقة أو العمل الصالح، ويرى، من كدس أمواله ولم يجعلها في خط الآخرة أنها صارت وبالاً عليه: تُصادر كلها منه، ويحاسب عليها كلها: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾[(٢)].

تأخير التوبة يوجب الحسرة:

آهٍ منك أيها الإنسان المغتر بنفسه، المؤخّر لتوبته، المسوِّف لإنابته، المؤجل لاستغفاره وتندّمه... وأنت ترى أن الأيام تمرّ والساعات، من دون استئذان منك... وما هو إلا وقت قصير ومكتوب، حتى تنقطع أنفاسك، وتغرغر بروحك... أفلا تسارع إلى

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

(٢) سورة المنافقون: الآيتان: ١٠، ١١.

التوبة وقد روي في جملة روايات مباركة أن التوبة تقبل من العبد قبل أن يغرغر، أي قبل أن تتردد روحه عند حلقومه؟ وأنَّ التوبة تقبل منه قبل أن يعاين أمر الآخرة[١]، وكل هذا نراه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾[٢].

أيها القارىء العزيز، فلنحسم أمرنا، ولنغلب شهوتنا، ولنعجِّل في توبتنا، فلا تعلم نفسٌ بأي أرض تموت، أو متى تموت، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وماذا يخبىء لها الأجل المستور. فإنَّ الله سبحانه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[٣].

وبما أنه سبحانه أعطانا التوبة، فلن يحرمنا من القبول، لأن وعده الحق، وكلامه الصدق.

الاستغفار رحمة:

فيا أخي المؤمن: إنك لو ارتكبت ذنباً، فإن الله يؤجله سبع ساعات، فاتحاً أمامك المجال للاستغفار، فإن فعلت فلا يُكتب عليك شيء، وإن لم تستغفر كتب عليك سيّئة..

أفلا تستغفر ربّك لذنبك، ولو بعد عشرين سنة، فيغفر لك؟!

يقول الإمام الباقر عليه السلام:

---

(١) ذكر الشيخ البهائي عليه الرضوان والرحمة، أنَّ من عاين يرى ملك الموت.

(٢) سورة النساء: الآيتان: ١٧، ١٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ٣.

«واعلم يا أخي، أنَّ من هَمَّ بسيّئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيّئة واحدة فحسب، ومن هَمَّ بحسنة كتبت له حسنة، وإن لم يعملها، فإن عملها كتبت له عشراً»[١].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «وإيَّاك أن تقنِّط المؤمنين من رحمة الله»[٢].

بعد كل هذه الألطاف الإلهية ما لك تتقاعس ولا تحزم أمرك، وأنت تسير نحو أجلك الموعود. وأجلك يسير نحوك، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه: «... فاتقى عبدٌ ربَّه، نصح نفسه، وقدَّم توبته، وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به، يزين له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، إذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها، فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عُمره عليه حجَّة، وأن تؤديه أيَّامه إلى الشقوة»[٣].

لماذا نؤخّر التوبة ونسوّفها، وقد كان من هو أفضل منَّا يسارع إليها؟ فهؤلاء هم الأنبياء يتوبون من غير ذنب اقترفوه، ولكن تعبداً وتقرباً وتطهيراً لنفوسهم. وكان السلف الصالح من عباد الله يستغفرون في ليلهم ونهارهم، وسرّهم وعلانيتهم، حتى أصبح ذلك عادة لهم لا تفارقهم.

تعجيل التوبة قبل الموت:

فكيف بي وبك، نحن الذين غرقنا بذنوبنا، وأحاطت بنا

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٠٠، باب ٥٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٨٠، باب ٨٩.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٦٤.

تبعاتها، ولم يزل أمامنا فرصة كي نلتحق بالمتقين في الدنيا، لعلَّ الله سبحانه يجعلنا منهم في الآخرة: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنَّة زمراً، وقد أُمِنَ العذاب، وانقطع العتاب، وزحزحوا عن النار، واطمأنت بهم الدار، ورضوا المثوى والقرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشّعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً، توحّشاً وانقطاعاً، فجعل الله لهم الجنَّة مآباً، والجزاء ثواباً، وكانوا أحقَّ بها وأهلها، في ملك دائم ونعيم قائم»[1].

«الاستغفار» أمان مستمر:

إنَّ التوبة والاستغفار من نعم الله سبحانه التي ينبغي أن نشكره عليها، وأن نسأله إيَّاها، لو لم تكن موجودة، فإنَّ الله سبحانه قد جعل في الأرض أمانين من عذابه، رُفِع الأول وبقي الثاني: فالأمان الأول الذي رُفع هو رسول الله ﷺ، أما الأمان الثاني الباقي، فهو الاستغفار، فلنتمسك بهذا الأمان.

لقد قال الله تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

وهذا الرابط بين الرسول والاستغفار يظهر جلياً فيما لو تشرّفت بزيارة المدينة المنوَّرة ـ قطع الله أيدي المتسلّطين عليها ـ لخاطبت النبي ﷺ قائلاً: «اللهم إنَّك قلت: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

رَحِيمًا﴾[1]، وإني أتيتك مستغفراً تائباً من ذنوبي، وإني أتوجّه بك إلى الله ربِّي وربّك ليغفر لي ذنوبي».

الموعظة بالحبشي:

أخي القارىء: كفى بنا موعظة أنْ نرى الله سبحانه وهو مطَّلع على كل عمل نقوم به، فهو الرقيب وهو الحسيب، فنخجل ونستحي . . .

فقد ذكر أنَّ حبشياً سأل رسول الله توبة على فواحش ارتكبها، فبشَّره بالإيجاب، فتاب الحبشي ثم مضى، وبعد قليل رجع، فقال: يا رسول الله، الله سبحانه يراني وأنا أعمل تلك الفواحش؟ فقال ﷺ: «نعم». فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه. فليكن هذا الحبشي مذكِّراً لنا وواعظاً.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإيَّاكم ممَّن لا تبطره نعمة، ولا تقصِّر به عن طاعة ربّه غاية، ولا تحلُّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

شروط التوبة

إنَّ من أهم وأخطر الصفات التي تعيق العلاقة الصحيحة والسوية، بين العبد وربِّه سبحانه وتعالى، هي: تأخير التوبة وتسويفها، طمعاً في المزيد من الشهوات، وانصياعاً للمزيد من الرغبات واللذات العابرة.

الحذر من مفاجآت الحياة:

فترى العبد، وبالرغم من رحمة الله تعالى عليه، أن فتح له باباً سمَّاه باب التوبة، تراه منصرفاً إلى ذنوبه، غارقاً في لذَّاته، مستسلماً لشهواته، كأنَّ الموت لم يُخلق له ملاقياً، وكأن الأجل لم يكن له حداً محدوداً... فيتمادى فيما يحب ويرغب، بينما تنتظره كمائن عديدة في حياته، تنغّصها عليه، من مرض أو فقر أو ضعف قد ينزل به في أي وقت، ومن دون سابق إنذار... ثم تكتمل الفاجعة عليه بنزول الموت به، حيث لا يستطيع منه مهرباً، ولا يتمكّن دونه مخبأ. بينما لو يسارع إلى التوبة ولم يسوِّفها، لكان مطمئناً إلى آخرته، مستقراً في دنياه، ساعياً إلى سبيل ربّه العفوِّ الغفور، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

خطران لتأخير التوبة:

إنَّ تأخير التوبة يؤدي بالإنسان إلى خطرين عظيمين، مُفسدَيْن للدنيا والآخرة:

فالخطر الأول لتأخير التوبة يؤدي بالإنسان قبل موته إلى تراكم الظلمة والقساوة على القلب، وتكرار المعاصي على مثيلاتها تجعل على القلب طبقة تحجب عنه ومنه الخيرات، ويصعب القضاء عليها تماماً كتراكم الأوساخ على المرآة إذ تترك آثاراً لا تُمحى. وهذا ما يُسمى برَيْن القلب نعوذ بالله منه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

أمَّا الخطر الثاني لتأخير التوبة فيكون بمعاجلة الإنسان بالمرض المبطل لقوته. ثم سرعة نزول الموت به، حيث لا يستطيع أن يؤخر أو يؤجّل.

وقال بعضهم: إنَّ الله تعالى يُلهم عبده إلهامَيْن:

الأول: عند خروجه من بطن أمّه فيقول له: أخرجتك إلى الدنيا نظيفاً طاهراً، وائتمنتك، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وكيف تلقاني.

والثاني: عند خروج روحه، يقول له: ماذا صنعت بأمانتي، هل حفظتها فألقاك بالوفاء، أو أضعْتَها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وهذا مصداقه في كتاب الله حيث يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

فلماذا لا نحسم أمرنا، ونغلب شيطاننا، ونضع حدّاً لشهواتنا التي استعمرَتنا، ونقطع سلطانها عنّا كي لا تستمر في استعبادنا وامتهاننا؟ فلا محالة، إنَّ الموت مخبوء وراء يوم من الأيام، أو ساعة من ساعات الغفلة كما حصل لقوم فرعون: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[١].

تأخير التوبة يزيدها صعوبة:

لِمَ لا نقطع دابر شهوتنا منذ الآن، وإن كان ذلك صعباً، ولعلَّ الشيطان يغرينا بتأخير التوبة أملاً في وقت آخر نكون فيه أكثر تأهّباً واستعداداً... فنكون نحن الغافلين المساكين، كمن أراد قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقّة شديدة، فأخرها لعام آخر وآخر، أملاً في تغيّر وضعها... وكأن الغافل الجاهل لا يعلم أنَّ كل عام يمرّ، بل كل شهر، يزيد في صعوبة قلعها وتجذرها وتمكّنها في الأرض.

يقول أمير المؤمنين: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجىء التوبة بطول الأمل»[٢].

وروي عنه عليه السلام قوله: «مُسوف نفسه بالتوبة، من هجوم الأجل، على أعظم الخطر»[٣].

شروط التوبة:

والتوبة والاستغفار والإنابة لا بدَّ أن تكون صادقة وحقيقية وجادة، قد خرجت من قلب سليم، ونفس زاكية، وهمّة عالية، ونيَّة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٦.
(٢) ميزان الحكمة: ح٢١٧٧، ونهج البلاغة، الحكمة: ١٥٠.
(٣) المصدر نفسه: ح٢١٧٩، ونهج البلاغة، الحكمة: ٢٨٣.

لا تريد إلا وجه الله سبحانه، وكفى بذلك ذخراً وفخراً. فقد روي أنَّ عليّاً عليه السلام وعند سماعه رجلاً يقول: «أستغفر الله». وضَّح معنى الاستغفار الحقيقي بتمامه وكماله قائلاً: «إنَّ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستّة معانٍ: **أوَّلها**: الندم على ما مضى. **والثاني**: العزم على ترك العود إليه أبداً. **والثالث**: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم. **والرابع**: أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعْتها فتؤدي حقها، **والخامس**: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينبت بينهما لحم جديد. **والسادس**: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله».

نرى من كلام علي عليه السلام أنَّ الاستغفار ندم شعوري، وعزم جدّي وحقوق تؤدى، وفرائض وصوم وألم ومجاهدة وشجاعة وتضحية وثبات وقوَّة وعز... وتوفيق من الله تعالى لكل ذلك، ودرجة عالية وحب وعشق لله سبحانه...

فهذا مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام يقول في دعائه: «وأوجب لي توبة توجب لي محبّتك... وانقلني إلى درجة التوبة إليك». ولا يكون ذلك إلا بصدق المسألة، وحسن التوفيق والجد في السعي والطلب.

النفور من الذنوب:

وصاحب التوبة النصوح هو الذي ينفر من كل أنواع الذنوب، وله تجاهها حساسية مفرطة، فكل ذنب بالنسبة إليه مكروه ومبغوض، تماماً كمن شرب السم في العسل وشارف على الموت، فإنه يكره

كل ما فيه هذا السم، بل ينفر حتى من العسل وإن لم يكن فيه سم، فقط لمجرد تذكُّرِهِ لما أصابه.

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «التائب إذا لم يستبن أثر التوبة، فليس بتائب يرضي الخصماء (أي الذين جحد حقوقهم أو اعتدى عليهم)، ويعيد الصلوات (التي في ذمّته)، ويتواضع بين الخلق، ويتقي نفسه عن الشهوات، ويهزل رقبته بصيام النهار...»[1].

لا وساطة بين الله تعالى والعبد:

إنَّ الاعتراف بالذنب يجب أن يكون أمام الله سبحانه وتعالى، لا أمام العباد، كما يفعل النصارى بناءً على تعليمات زعمائهم الكنسيِّين، حيث لا بدَّ أن تكون التوبة، أو ما يسمى عندهم بالاعتراف، لا بدَّ أن يكون أمام القسِّيس وإلاَّ فلا تكون. بل إنَّهم أخذوا يبيعون ويتاجرون بأوراق المغفرة ليتجاوزوا عن العاصين، كما يعترفون هم بذلك ويمارسون حتى الآن... تعالى الله عمَّا يقولون علوّاً كبيراً.

والآن، هل اقتنعت يا أخي أنَّ التوبة المذكورة في القرآن الكريم، هي نعمة من الله تعالى وفضل عظيم... وأنَّ الآخرين من النصارى وغيرهم، يحاولون تقليدنا، ولو مع الانحراف والتشويه، فيختزلون كل معاني التوبة السامية، بنظرية الصَلب والفداء، ويجعلون الإنسان فقيراً إلى الإنسان.. ولعلَّ المفتقر إليه من الرهبان

---

(١) ميزان الحكمة: ح٢١٥٩، وبحار الأنوار: ج٦، ص٣٥، باب ٢٠.

والقسِّيسين أكثر ذنباً ومعصية... والإسلام يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، حيث أوكلنا الله سبحانه إليه ولم يكلنا إلى الناس فيهينونا، ولا يقدِّم هؤلاء القسِّيسون شيئاً ولا يؤخِّرون، فكيف يغفرون الذنوب ويتجاوزون عن السيِّئات. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[2].

الحمد لله الذي أكرمنا بالتوبة والرجاء، ولم يجعلنا من الآيسين القانطين، وهو الذي يُحيي قلوبنا من جديد: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[3].

خطوات تفصيلية للتوبة:

وينبغي لصاحب التوبة أن يحسب كل ما فاته من العمر، حتى لو استطاع ساعة فساعة، وكيف كانت صلاته وصومه ونيّته وعلاقاته الاجتماعية، محصياً حقوق الناس المالية والعينية، مُرْجعها إليهم، محصياً حقوق الخالق سبحانه، نادماً منيباً إليه، مستبدلاً كل سيّئاته بالحسنات وفعل الخيرات، فيستبدل ما فعل من نظرة الحرام، وشرب الخمر، وسماع الموسيقى والغناء... بكل ما يناسب من الإكثار من

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣.
(٣) سورة الزمر: الآيتان: ٥٣ و٥٤.

الصلوات وقراءة القرآن، والاستماع إليه، والمناجاة والسهر في العبادة والطاعة، والسعي لخدمة الأيتام والمستضعفين والفقراء...

«اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمنّي والتظني والحسد، ذكراً لعظمتك، وتفكّراً في قدرتك، وتدبيراً على عدوّك...»(١).

وليذكر كيف كان في السابق، يسير المسافات الطويلة من أجل سرقة، والعياذ بالله، أو شرب خمر أو حفلة ماجنة، فلِمَ لا يتعب نفسه في طاعةٍ، وقضاء حاجة، وخدمة مستضعف، وإعلاء لكلمة الله سبحانه، ولأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر؟!

وبشكل عام عليه أن يتحمس ويندفع للطاعات كما كان يندفع إلى المعاصي، فكل سيّئة لا بد أن تواجه بحسنة، وكل ظلمة في القلب بحاجة إلى نور يبدِّد الظلام. قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٣).

وعن الرسول الأكرم ﷺ: «أتبع السيّئة الحسنة تَمْحُها»(٤).

الحسنات تذهب بالسيئات:

وعلى كل حال يجب الإكثار من الحسنات لمحو السيّئات.

---

(١) من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في مكارم الأخلاق، والصحيفة السجادية: ص٩٢ الدعاء ٢٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٤) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٩٣، باب ٩٢.

فمن كان يؤذي الناس، مستتراً بتنظيم أو جماعة أو زعيم، عليه بالإحسان إليهم وخدمتهم. ومن غصب أموال الناس، عليه أن يُرجعها إليهم، من الحلال. ومن تناول المسلمين بالغيبة والبهتان، عليه أن يمدحهم ويظهر خصال الخير فيهم.

ولعلَّ من رحمة الله سبحانه علينا أن يعظّم الهم والحسرة في نفوسنا نتيجة ذنوبنا لأن ذنوب العبد إذا كثرت ولم تكن له أعمال يكفرها، أدخل الله عليه الغموم، فيكون كفارة لذنوبه، كما ورد في رواية: «من الذنوب ذنوبٌ لا يكفرها إلا الهموم».

وفي كل ذلك تثبيت لنا على التوبة وتذكيرٌ لنا بها، كما يذكر أمير المؤمنين عليه السلام موضحاً في نهج بلاغته قائلاً: «إنَّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيِّئة، بنقص الثمرات وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات. ليتوب تائب، ويُقلعَ مُقلع، ويتذكر متذكّر، ويزدجر مزدجر، وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق، ورحمة الخلق. فقال سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾[1].

«فرحم الله امرأً استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادَرَ منيْتَه»[2].

اللهم هذا مقام من رأى كبير عصيانه كبيراً، وجليل مخالفته جليلاً، فأقبل نحوك مؤمِّلاً لك، مستحيياً منك... فمثل بين يديك متضرعاً، وغمض بصره إلى الأرض متخشّعاً، وطأطأ رأسه لعزّتك متذلّلاً... وعدد من ذنوبه ما أنت أحصى له خشوعاً، واستغاث بك من عظيم ما وقع به في علمك، وقبيح ما فضحه في حكمك من

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٣.

ذنوب أدبَرت لذاتها فذهبت، وأقامت تبعاتها فلزمَت. لا ينكر يا إلهي عدلك، إن عاقبته، ولا يستعظم عفوك إن عفوْتَ عنه ورحمته. . .

«اللهم إني أتوب إليك في مقامي هذا من كبائر ذنوبي وصغائرها، وبواطن سيّئاتي وظواهرها، وسوالف زلاّتي وحوادثها، توبة مَنْ لا يُحدِّث نفسه بمعصية. . . فاجعل توبتي هذه، توبةً لا أحتاج بعدها إلى توبة، توبة موجبة لمحو ما سلف، والسلامة فيما بقي. . .»[1].

اللهم اجعلنا من الذين ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾[2].

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١٣٨ الدعاء ٣١.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان: ١٣٥ و١٣٦.

الغضب

الحمد لله رب العالمين، الذي ابتلانا بالغضب وأمرنا بتركه، لنكون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

قُبْحُ الغضب:

والغضب من الصفات المذمومة الشائعة كثيراً بين الناس وهو صفة نفسانية قبيحة، تجعل الإنسان يخرج عن أطواره وعاداته، ويتصرَّف كالمجنون، متعدياً على حقوق الناس وأموالهم وأملاكهم، مفرطاً في حقّ نفسه، متجاوزاً للقيود الشرعية التي حدَّدها الله سبحانه وتعالى، متهاوناً بالعقاب الموعود.

ولأن الغضب صفة شيطانية، نهى الله سبحانه وتعالى عنها، لأنَّها من نوازع النفس الخطيرة التي تؤدي بالإنسان إلى الشتم والافتراء، وقد تصل به إلى القتل واستباحة الدماء كما نشاهد ذلك جلياً وكثيراً في حياتنا اليومية، حيث نرى فئات من الناس تغضب لمجرد أمر صغير أو حادث بسيط أو ظاهرة عابرة لا تستحق الذكر، فيرتفع الصياح، وتتشابك الأيدي، ويعلو صوت الرصاص، وعندها، يتأكد ما ذكر في الروايات المباركة من أن الغضب نوع من الجنون وأنه من إيحاءات الشيطان الرجيم، كما سنرى ذلك إن شاء الله بعد قليل.

والله سبحانه وتعالى دعا بلطفه المؤمنين إلى العفو وكظم الغيظ، ومَدح أصحاب هذه الصفات الحميدة، ووعدهم بمغفرة وجنَّة عرضها السماوات والأرض فقال عزَّ من قائل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾[١].

أضرار الغضب:

فهم محسنون لأنهم تركوا غضبهم وملكوا أنفسهم، فاستحقوا الأجر والرضوان من الله سبحانه. ولو تمادوا في غضبهم هذا، لتفتّحت لهم كل أبواب الشيطان وأعماله، من ضَرْب، أو شتم، أو حسد، أو حقد، وحتى الانصراف عن العبادة والكلمة الطيِّبة، ويكفي أن تتصوَّر صلاتك، عندما تُقدم عليها وأنت غضبان، كيف تفقد مضمونها... أو تتخيّل نفسك وأنت تجلس في مجلس دعاء أو موعظة، والغضب يفور في أحشائك، ويتأجَّج في قلبك، فلا أدري أي كلمة أو أي خشوع هو الذي تجده!

وكم من أفعال الشر التي تجري في كل يوم، في شوارعنا، وأسواقنا ومدارسنا ومحلاَّتنا، وتكون بسبب الغضب والانفعال. وكم من المعارك العسكرية، أو السياسية التي تقع علينا ونتحمَّل مشاكلها، بسبب نزوة غضب لزعيم أو مسؤول، أو رئيس مجموعة، أو شيخ عشيرة. وهذا مصداق قول الإمام الصادق عليه السلام: «الغضب مفتاح كل شر»[٢].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣ و١٣٤.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٤٦٨٣، ووسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٥٨، باب ٥٣.

وكيف لا يكون كذلك، ولم يبقَ أمام الغاضب شيءٌ من المحرَّمات إلاَّ وهو مستعد لأن ينتهكه ويخوض فيه.

من هنا نعلم السرَّ في ذلك الرجل، الذي جاء إلى رسول الله ﷺ طالباً منه موعظة يتّعظ بها، فقال له: «لا تغضب» مكرِّراً له ذلك ثلاث مرات، حيث لم يجد إلا هذه الموعظة التي تبدو صغيرة ومختصرة، وكأنها لا تشبع رغبة النفس، ولكن المتأمِّل بها يفهم مغزاها، وخطورة مخالفتها، كما فهم ذلك أحد الحاضرين، وهو حميد بن عبد الرحمن، عندما فكّر في قوله ﷺ: «لا تغضب» وتكراره لذلك، لأن الغضب يجمع الشرَّ كله.

الغضب يذهب بالعقل:

ليس هذا فحسب، بل إنَّ الغضب يفقد الحكيم حكمته، والعالم علمه، والوقور هيبته واتّزانه...، فهل رأيت طوال حياتك عالماً حكيماً جليلاً يغضب لأدنى سبب، وبقي في نفسك احترام له أو تعظيم لقدْره؟!

وهذا الصادق عليه السلام يقول: «الغضب ممحقة لقلب الحكيم»[١].

إنَّ الغضب نار موقدة تَطَّلع على الأفئدة، فتعميها وتصمُّها، وتظهر آثارها على وجه الإنسان وأوداجه واصطكاك أسنانه وزيغ عينيه وارتجاف يديه.

وجاء في رواية عن رسول الله ﷺ قوله: «ألا وإنَّ الغضب

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٤٦٩٥، وبحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٧٢، باب ١٣٢.

جمرةٌ في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصَق خدّه بالأرض»[١].

وكأني به ﷺ في آخر كلامه، عندما يدعو الغضبان للالتصاق بالأرض، يريد أن يُذَكِّره، أنَّه من التراب خرج وإلى التراب يعود، وأن مصيره الموت، فلا تنفعه كل الحركات والتصرفات غير المسؤولة المتولِّدة من رَحِم الغضب، حيث أُشير في الروايات الأخرى عن المعصومين عليهم السلام أنَّ الغضب جمرة من الشيطان، وأنه نار للقلوب، بدليل ما يظهر على جوارح الإنسان، عند اشتداد غضبه.

والمؤمن هو الذي يحاصر هذه النار ويطفئها، بورعه وخشيته وتذكره سلطان الله عليه، فيعفو ويصفح ويتجاوز ويرحم من في الأرض لعلَّ من في السماء يرحمه، ويغفر للعباد لعلَّ ربَّ العباد يغفر له. فإن لم يفعل ذلك، ولم يحاصر هذه النار الشيطانية في مهدها، ولم يقضِ عليها في بدئها، فستحرقه بالأعمال التي سوَّلتها له، ويكون أول ضحية لنار غضبه.

قال علي عليه السلام: «الغضب نار موقدة، من كظمه أطفأها، ومن أطلقه كان أول محترق به»[٢]. أي بالأعمال الناتجة عن هذا الغضب.

تزايد الخطورة مع عِظَمِ المسؤولية:

وكلَّما عظمت مسؤولية الفرد، كلَّما كان غضبه أخطر وأكثر إساءة ووبالاً على من يعيش في كنفه أو تحت إمرته. وهذا ما نراه في حالة الانفعال عند رب العائلة، أو رب العمل، أو مدير

---

(١) في وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٦٠، باب ٥٣ «فمن أحسّ بشيء من ذلك فليلزم الأرض».
(٢) ميزان الحكمة: ح١٤٧٠٥، وغرر الحكم: ح٦٨٩٥.

المؤسسة، أو القائد العسكري، أو حاكم المقاطعة... حيث تكون القرارات عندئذٍ شاملة في طغيانها ونارها أصنافاً كثيرة.

ولخطورة هذه المسألة، كان أمير المؤمنين عليه السلام يوصي دائماً الولاة والحكّام والقوّاد وكبار المسؤولين، بالكفّ عن الغضب، حتى لا يقعوا تحت تسخير الشيطان وتأثيره. فها هو عليه السلام في نهج البلاغة يبعث بكتاب إلى الحارث الهمداني ويختمه بقوله: «واحذر الغضب، فإنَّه جند عظيم من جنود إبليس»[١]. وكان عليه السلام قد أوصاه في الكتاب نفسه بقوله: «واكظم الغيظ وتجاوز عند المقدرة، واحلم عند الغضب»[٢].

وفي نهج البلاغة أيضاً ترى أنَّه عليه السلام يوصي عبد الله بن العباس، عند استخلافه إيَّاه على البصرة قائلاً: «وإيَّاك والغضب فإنَّه طيرة[٣] من الشيطان»[٤].

الغضب جنون:

والغضب أيضاً درجة من درجات الجنون، وهو جنون حقيقي، ألا ترى الغضبان كيف يتصرف بما يضرّه ويضر الناس، حتى أنه قد يمزق ثوبه، أو يلطم وجهه، أو يحرق ماله؟... وهل هذه الأعمال إلا أعمال مجانين، تؤدي بصاحبها إلى الندم، بعد نوبة جنون مؤقّتة. يكون قد أتلف أثناءها الكثير من ممتلكاته وأعصابه؟... هذا طبعاً،

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٤٧٠٤، ونهج البلاغة، كتاب ٦٩.
(٢) كتاب ٦٩ من نهج البلاغة.
(٣) أي خفة وطيش شيطاني
(٤) وصية رقم ٧٦ من نهج البلاغة، وميزان الحكمة: ح١٤٧٠٦.

إذا ندم ورجع إلى وعيه، أما إذا أصرَّ ولم يتراجع عن فعله، فهذا دليل على أنَّ جنونه دائم وليس عابراً.

قال علي عليه السلام: «الحدة ضرب من الجنون، لأنَّ صاحبها يندم، فإن لم يندم فإنَّه جنون مستحكم»[1].

ويقول عليه السلام: «إيَّاك والغضب فأوله جنون وآخره ندم»[2].

وبالغضب يكون الإنسان قد تخلَّى، وبإرادته، عن أهم ما يميّزه عن الحيوان، وهو العقل، ولك أن تقدر المستوى الذي يصل إليه إنسان من دون عقل، فقد أفسدَ لبَّه، وشتَّت ذهنه، وضعَّف وعيه...

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك بقوله: «شدة الغضب تغيِّر المنطق، وتقطع مادة الحُجَّة، وتفرِّق الفهم»[3]. ويقول أيضاً: «الغضب يفسد الألباب ويبعد عن الصواب»[4].

وبهذا يكون الغضبان قد فقد هويته الإنسانية، وانتسابه لبني آدم.

كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من غلب عليه غضبه وشهوته فهو في حيِّز البهائم»[5].

ليس قوياً مَنْ يغضب:

وهناك فكرة شائعة بين الناس، وهي أن من يغضب أكثر،

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٤٧٠٩، ونهج البلاغة، الحكمة: ٢٥٥.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٤٧٠٨، وغرر الحكم، ح٦٨٩٨.
(٣) بحار الأنوار ج٦٨، ص٤٢٨، باب ٩٣.
(٤) ميزان الحكمة: ح١٤٧١٠، وغرر الحكم، ص٦٥ ح٨٦٢.
(٥) ميزان الحكمة: ح١٤٧٢٥، وغرر الحكم، ص٣٠٢، ح٦٨٧٤.

ويظهر عصبيَّته وبأسه، يكون الأشجع والأقوى، وهذه فكرة واضحة الضلالة والانحراف، إذ كيف يكون كذلك، وقد انهزم أمام سلطان الشيطان وملك الشهوة!؟.

وكيف يكون كذلك (أقوى وأشجع) وقد دخله الشيطان وانتصر عليه ونطق بلسانه، وأخذ يستعمله فيما يشتهي ويريد!!...

وكيف يكون هو الأقوى والأشجع، وهو لا يملك إرادته ولا أعماله ولا تصرفاته... بل كل ذلك بيد الشيطان الذي يظهر من شدَّة احمرار وجهه، وانتفاخ أوداجه، واتساع حدقتيه، وبذيء لسانه... وبطشه واعتدائه على الناس!

القوي مَنْ غلب هواه:

إنَّما القوي حقاً، والشجاع هو الذي يغلب هواه وشهوته ونفسه، ويسيطر على غضبه، فلا يدَّعي عصبية هزمته ولا حدَّة غلبته..

وقد رأى رسول الله ﷺ يوماً جماعة يتبارزون في حمل حجر ضخم، فقال لهم: «أشدكم مَنْ ملكَ نفسه عند الغضب، وأحْلمكم من عفا بعد المقدرة»[١].

وفي رواية أخرى في مشكاة الأنوار قال ﷺ للجماعة التي أرادت اختبار قوَّتها: «أشدكم وأقواكم الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس بحق»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ج٧٤، ص١٥٠، باب ٧.

(٢) مشكاة الأنوار ص٣٢، نقلاً عن ميزان الحكمة: ح١٤٧٣٣.

وأنَّى للغضبان هذه الصفات السامية، وأين هو منها؟! وقد تبين لنا أنَّ الذي يغضب هو مجنون، وعبد للشيطان، ويقف أمام كل شر... وأنَّ الغضبان من أكثر الناس والعباد جبناً وخوفاً، بينما الذي يحارب هواه، ويغلب شيطانه، ويطيع أمر مولاه هو الشجاع حقاً. فلا يتغير عند السخط أو الرضا أو القدرة، بل يبقى الحكم الشرعي هو المحرك له والضابط. ويتصف بقول الله سبحانه في سورة الشورى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[1].

فهلاَّ كففنا الغضب قربة إلى الله سبحانه؟! وهلاَّ كففْنا الغضب لعلَّ الله سبحانه برحمته يكف عنَّا غضبه يوم القيامة؟!

وهل نرأف ونرحم العباد فيرأف بنا الرؤوف الرحيم؟! وهل نحن أهل لهذا المقام؟!...

«اللهم صلِّ على محمد وآله وحلِّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين، في بسط العدل وكظم الغيظ وإطفاء النائرة وضمِّ أهل الفرقة وإصلاح ذات البين... ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة،... وطيب المخالقة...

... اللهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلِّصها، وأبقِ لنفسي من نفسي ما يصلحها، فإنَّ نفسي هالكة أو تعصمها...»[2].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

(٢) الصحيفة السجادية، ص٩٣: من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام الدعاء ٢٠.

علاج الغضب، والغضب المحبَّب

لا شك أن كلَّ إنسان يمر، وفي لحظة من لحظات نهاره أو ليله، بحالة نفسانية تنزع به نحو الغضب والعصبية والانفعال، والذي قد يُسمَّى في مصطلح جديد له، مشتقّ من اللغة الأجنبية، يسمّى (النرفزة).

الغضب صفة قبيحة:

وبات واضحاً أن النرفزة هذه، والغضب بشكل عام ليس من صفات المؤمنين المتقين المحسنين المتواضعين، المزيّنين بالحلم والعفو وكظم الغيظ والأخلاق الحسنة الحميدة، والمزايا الرفيعة التي ترفع مَنْ ليس شأنهم[١] أن يتدنّوا إلى مستوى الانفعال السريع الذي هو صورة من صور التجبّر،والتي تُبيّن أن صاحبها الغاضب قد سلم زمام أمره للشيطان الرجيم، فيستولي على عقله وحركاته وأطرافه، حتى يصبح في درجة المجانين.

ومن ابتُلِي بظاهرة الغضب لا بد له أن يعالج مرضَه الخطير هذا، ويجعل من نفسه طبيباً لنفسه ومراقباً، حتى لا يؤدِّي به غضبُه إلى الاعتداء وسفكِ الدماء لا سمح الله.

---

(١) أي ليس من صفاتهم.

والعلاج يكون بمعرفة سبب الداء (أي داء الغضب) ومعالجته بالدواء المناسب.

أسباب الغضب:

وأسباب الغضب كثيراً ما تكون متولّدة من: الغيرة، والحسد، وحبِّ الذات، وحبِّ المنصب، وتحقير الآخرين، والتكبر، وترجيح المصالح الشخصية، والعُجب، والمزاحِ المستثقل، وشدة الحرص على حُطام الدنيا ومادياتها... وغيرها من الصفات الأخرى المذمومة شرعاً وعقلاً، والتي لا تؤدي بصاحبها إلا إلى سوء العاقبة والمصير.

فقد سئل عيسى عليه السلام: ما بدء الغضب؟ قال: «الكِبْر، والتجبُّر، ومحْقَرة الناس»[١].

ومن أصابته هذه الحالة لا سمح الله، فقد جعل من نفسه دُمية للشيطان يلعب به كيفما يشاء، ويتقاذفه ويقلّبه كما يُقلّب الطفل كرته بين يديه.

تشخيص الداء خطوة لمعرفة الدواء:

وما دامت أسباب الغضب قد عُرضت، فلنصف الدواء بدقّة، ولنبدأ بالمعالجة مستعينين بالله سبحانه، للتخلّص من كل صفة أخلاقية مذمومة، وللتحلّي بكل صفة أخلاقية ممدوحة.

إنَّ أدوية الغضب عديدة: فمنها ما يكون بامتلاك صفات نفسانية خُلُقية، أو بتقليد آداب الأنبياء والعلماء والحكماء والاستماع

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٤٧٥٥، وبحار الأنوار ج١٤، ص٣٢٣، باب ٢١.

إلى قصصهم، للاتّعاظ بها، ومنها ما يكون بتذكر الأجر والثواب المعدِّ لمن يكفُّ غضبه، ومنها أمورٌ عملية يقوم بها الغضبان من قبيل المبادرة إلى الوضوء أو الاغتسال أو الجلوس أو السجود وأمورٌ أخرى يأتي الحديث عنها إذا وفق الله تعالى لذلك.

المهم أن نعلَمَ ونعمل، وأن نستمع ونُطبِّق، حتى لا تكون ردَّة الفعل معاكسة للمطلوب فتؤدي إلى قساوة القلب، الناتجة عن زيادة العلم والاغترار به، مع ترك العمل.

العلاج بالأضداد:

فمن رأى من نفسه أنه يغضب بسبب شيء معيَّن، عليه أن يواجهه بالصفة المضادة له، فمن كان غضبهُ بسبب التكبُّر مثلاً فليتزيَّن بالتواضع، ومن كان غضبه بسبب حرصه على مصالح المال والجاه، فليتحلَّ بالقناعة والاكتفاء...

وعن علي عليه السلام في بيان هذا العلاج، يقول: «ضادّوا الغضب بالحلم»[1].

وهكذا يُواجه الحسدُ بحب الآخرين، ويواجه حب الذات، بالإيثار وخدمة المستضعفين، والغَيْرة بترك الهوى وتعزيز العلاقة مع الإخوة والجيران وحبِّ الخير لهم وتمنّي التوفيق والسداد، بل والعمل من أجل ذلك، وأن تفرح لكل خير يقع لهم، وأن تحزن لكل ما يحزنهم.

وبشكل عام وكقاعدة عامة، يُعالج الغضب بمعرفة أسبابه وبواعثه النفسية، ثم بمواجهة هذه الأسباب بمضاداتها الخُلُقية، والعمل بها، وإن كان ذلك ثقيلاً في بداية العلاج...، وهكذا...

(١) ميزان الحكمة: ح١٤٧٦٤، وغرر الحكم، ح٦٣٩٥.

حتى تصبح هذه الأعمال ملكاتٍ راسخة في النفس غير مستثقلة أو مُستبغضة، بل تأنس بها النفس ويرتاح إليها القلب، ويتفقدها عند غيابها.

ترك الغضب ابتغاء رضى الله تعالى:

ومن جملة علاجات الغضب أيضاً: أن نتذكر ما أعدَّ الله سبحانه من الثواب لأهل العفو والحلم، والذين يكظمون غيظهم ويتجاوزون عن حقوقهم تقرُّباً إلى الله تعالى. يقول سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[١].

ولنتذكر أيضاً: عند اشتداد الغضب، قدرة الله سبحانه وتعالى علينا، وهي أعظم من قدرتنا على هذا العبد، وكما أننا نرجو العفو يوم القيامة، ونأمل به، فلنتخلق بأخلاق الله سبحانه، بالعفو عن هذا الإنسان الضعيف، رجاء أن يتجاوز الله عنَّا يوم القيامة.

ويحدثنا رسول الله ﷺ أن الله تعالى أوحى إلى سيدنا داوود عليه السلام: «إذا ذكرني عبدي حين يغضب، ذكرته يوم القيامة في جميع خلقي، ولا أمحَقه فيمن أمحق»[٢].

وعن رسول الله ﷺ: «من كفَّ غضبه كفَّ الله عنه عذابه»[٣].

---

(١) سورة الأعراف: الآيات: ١٩٩ ـ ٢٠١.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٤٧٤٩، وبحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٦٦، باب ١٣٢.

(٣) ميزان الحكمة: ح١٤٧٥٣، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٨٨، باب ٩٢.

الغضبان مَنْ يشبه:

ومن جملة علاجات الغضب أيضاً: أن نتذكر الصورة القبيحة التي تتلبسنا في حال الغضب حيث يُصبح الإنسان أشبه بالبهائم، فتراه يضرب ويتوثب ويُزمجر، ويكسّر الأواني والأثاث من حوله... بينما لو كفَّ غضبه لتشبه بالأنبياء والعلماء والحكماء!!!

ولا شك أن المؤمن العاقل هو الذي يحب التشبه بالمختارين والصالحين من عباد الله، ولو التفتنا أو طالعنا التاريخ القديم لرأينا أن الحلم والعفو وكظم الغيظ من شِيمَ الأنبياء والحكماء والعقلاء، بينما الغضب والانفعال من صفات الجهلة وأهلِ البغي.

كيف تعامل الأولياء مع الغضب:

وروى حمَّاد اللحام أن رجلاً أتى الإمام الصادق عليه السلام شاكياً له أن أحد أبناء عمّه (أي أبناء عم الإمام الصادق) ما ترك وقيعة ولا شتيمةً إلا قالها فيه، فتوضّأ الإمام عليه السلام ودخل إلى غرفة مجاورة. فقال الرجل في نفسه، لعلَّه دخل ليصلّي ركعتين ويدعو عليه، فيهْلَك من ساعته... ولكنَّ الإمام عليه السلام قام يصلي ويقول: «يا رب هو حقي قد وهبته، وأنت أجودُ مني، وأكرم، فهبْه لي، ولا تؤاخذه بي ولا تقايسه».

قال الراوي: «فلم يزل عليه السلام يدعو فجعلت أتعجب»[1].

وفي رواية أخرى، أن الإمام عليه السلام قام يصلي ويقول: «يا رب

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٢١٦.

إنَّ فلاناً بالذي أتاني عن فلان وهو يظلِمُني، وقد غفرت له»[١] . . . فلم يزل يُلحُّ على ربّه في الدُّعاء. . . ثم زاره بعد ذلك.

الصمت علاج وموقف:

ومن جملة علاجات الغضب أيضاً: أن يسكت عند الغضب مباشرة، ولا يتكلم، لأنَّ الشيطان حينها هو الذي يُحركه ويسوِّل له، ليخوضَ في الباطل، فقد جاء عن علي عليه السلام في غُرر الحِكم قوله: «داووا الغضبَ بالصمت»[٢].

وفي روايات أخرى أنَّ الغضبان إذا كان واقفاً فليجلس، وإن كان جالساً فليقف أو فليضطجع. . . أو أن يلزم الأرض، ولعلَّها إشارةٌ إلى السجود، وفي نصوص أخرى، فليُلصِق خدَّه بالأرض، . . . وفي كل ذلك تمكينٌ لأعزّ الأعضاء، من التراب الذي يُداس بالأقدام، ليزول عنه العزُّ والفخر، ويستشعر قُدرة الله عليه.

تغيير الظروف المحيطة، علاج:

وفي كل الأحوال، على الغضبان أن يُغير موضِعَه أو شكل جلستِه، ليساهِم في نسيان الحالة التي هو عليها. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله في تحف العقول: «يا علي لا تغضب، فإذا غضبت فاقعد وتفكَّر في قدرة الربِّ على العباد وحلمهِ عنهم، وإذا قيل لك: اتّق الله، فانبذ غضبَكَ، وراجع حِلمَك»[٣].

وجاء عن الباقر عليه السلام في بحار الأنوار، قوله: «أيُّما رجل

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٢١٧.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٤٧٥٧.
(٣) تحف العقول، ص١٣، نقلاً عن ميزان الحكمة: ح١٤٧٥٦.

غضب وهو قائم فليجلس، فإنَّه سيُذهب عنه رجز الشيطان، وإن كان جالساً فليقم. . .»[١].

وورد في روايات عديدة دعوة إلى الغضبان أن يتوضّأ أو يغتسل بالماء البارد، فعن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خُلِق من النار، وإنَّما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكُم فليتوضّأ»[٢].

ولخصوص ما إذا كان الغضب من ذي رَحِم، فالمستحب هنا، الدنوُّ منه ولمسُه بمصافحة أو عناق، أو مسح على رأسه مثلاً، إظهاراً للتحنن والرأفة والمحبة له. فقد جاء عن الباقر عليه السلام في كتاب الكافي الشريف قوله: «وأيُّما رجلٍ غضِب على ذي رحم، فليدن منه، فليمسّه، فإنَّ الرحم إذا مُسَّت، سكنت»[٣].

وهكذا رأينا فيما تقدَّم، جملة من العلاجات المختلفة، لحالات الجنون الطارىء التي قد تُصيب الإنسان، وتفتح عليه كلَّ شيء، فيصبح في خطر مُحْدق على إيمانه، نتيجة إيحاءات أجنبية غريبة عن التزامه ومعتقداته، يُخشى منها في حال تفاقمها أن تُخسِرَ الإنسان إيمانه، كما يقول رسول الله ﷺ: «الغضب يُفسد الإيمان كما يُفسد الخلُّ العسل»[٤].

نصيحة الإمام لأحبائه:

وتصور نفسك لو كنت عند إمامٍ من أئمّتك المعصومين عليهم

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٦٤، باب ١٣٢، نقلاً عن ميزان الحكمة: ح١٤٧٥٨.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٤٧٦١، وبحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٧٢، باب ١٣٢.
(٣) الكافي: باب الغضب، ج٢، ص، ٣٠٢.
(٤) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٦٥، باب ١٣٢، نقلاً عن نوادر الراوندي.

السلام ووُفِّقت في الوصول إليه والمثول بين يديه، ثم طلبت منه موعظة، أفلا تعمل بمضمونها؟!

وها هو الإمام الرضا عليه السلام يقول لرجل من القميين واعظاً، ومحمّلاً له برسالة إلى أبناء قومه، قائلاً له: «اتقوا الله وعليكم بالصمت والصبر والحلم، فإنَّه لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً»[1].

الغضب المحبّب:

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن المؤمن ينبغي أن يوجِّه كلَّ ما عنده من حدَّة وغيظٍ وغضبٍ إلى أعداء الله سبحانه، وهذا بحدِّ ذاته شرفٌ عظيم لنا.

فعلينا توجيه غضبنا لينال من الذين كانوا السبب في أكثر مشاكِلنا الاجتماعية والاقتصادية والمالية والسكنية والأمنية والعقائدية، فضلاً عن المشاكل السياسية والعسكرية، وأن نوجِّه لومنا للنيل من المستكبرين والمستعمرين، الطامعين بأرضنا، الناهبين لأرزاقنا، المسيئين لمعتقداتنا، القتَّالين لأبنائنا، المستبيحين لمقدَّساتنا.

ولنعلَمَ أنَّ أكثر آلامنا منهم وبسببهم... كانت وما زالت، حتى نضع لهم حداً وهذا ما نرى أنَّ الأئمة عليهم السلام يدعون إليه أصحابهم وهو الغضب المقدَّس، وفي ذلك أجرٌ وثواب... أي أن يكون غضبنا، في الله، وبالله سبحانه.

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٢١٦.

فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يكتبُ لأهل مصر مادحاً لهم: «من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى القوم الذين غضبوا لله، حيث عُصي في أرضه، وذُهِب بحقِّه...»[١].

ويوبِّخُ عليه السلام بعض أصحابه لتقاعسهم عن الغضب لله سبحانه، ونصرته،... فلنستمع نحن المنتسبين إليه، من أنصاره وشيعته، كيف كان عليه السلام يتعجب منهم حين يتحمّسون لمصالحهم الشخصية، والدفاع عن آبائهم وعشائرهم، بينما عهود الله مستباحة بينهم، ولا من مُنكر.

يقول عليه السلام في خطبة لهم مؤنباً: «وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون، وأنتم لنقض نِعَم آبائكم تأنفون»[٢].

وكان عليه السلام في مناسبات مختلفة، يشيرُ إلى فضل الانفعال والتحرك بأقصى قوَّةٍ ممكنة، دفاعاً عن المقدَّسات والحُرُمات من أن تُنتهك، وفي ذلك كما يقول عليه السلام قوَّةٌ على أشداء الباطل فيُهزمون، وتثبيت للمؤمنين فيُنصرون، ورضى لله سبحانه يوم القيامة، وهذه الحالة المحببة تُسمَّى في مصطلحاتنا بالتنمر في سبيل الله سبحانه الذي أوحى إلى سيدنا موسى عليه السلام في الذين يُظلُّهم في ظل عرشه، يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه، فذكر سبحانه جملة منهم إلى أن قال: «... والذين يغضبون لمحارمي إذا استُحِلَّت، مثل النمر إذا جرح»[٣].

أبو ذرّ والغضب لله تعالى:

هكذا كان نهج الأنبياء والأولياء، وهكذا كان أنصارهم،...

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٣٨، وميزان الحكمة: ح١٤٧٦٥.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٤، وميزان الحكمة: ح١٤٧٦٦.
(٣) ميزان الحكمة: ح١٤٧٧٠، وفي مشكاة الأنوار: ص١٥٤ «مثل النمر إذا حرد».

فلنتصوَّر أنفسنا لو كُنَّا في زمن أبي ذر رضي الله عنه، عندما حُكم عليه بالنفي، وقد خرج الأحبة لوداعه: عليٌّ وعقيل والحسن والحسين وعمار بن ياسر، فلمَّا حانت لحظة الفراق، وقف أمير المؤمنين عليه السلام وقال في كلام مؤثِّر: «يا أبا ذر، إنَّك إنَّما غضبت لله عزَّ وجلَّ، فارجُ ما غضبت له، إنَّ القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فأرحلوك عن الفناء، وامتحنوك بالبلاء، ووالله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً ثم اتقى الله عزَّ وجلَّ، جعل له منها مخرجاً، فلا يُؤْنسك إلاَّ الحق، ولا يوحشك إلاَّ الباطل...»[1].

وكان المُخلص البارُّ أبو ذر عند حسنِ ظنِّ سيِّده ومولاه، فودَّع الناس من حوله ووصَّاهم إلى أن قال: «أيُّها الناس اجمعوا إلى صلاتكم وصومكم، غضباً لله عزَّ وجلَّ إذا عُصي في الأرض، ولا تُرْضوا أئمتكم بسَخَط الله، وإن عُذِّبتم وحُرِمتم وسُيِّرتم، حتى يرضى الله عزَّ وجلَّ...»[2].

اللهم وفِّقنا برحمتك لنكون رُحماء فيما بيننا، ونكفَّ غضبنا عن بعضنا، واجعل بفضلك غيظنا ونقمتنا على مَنْ ظلَمنا، من أعدائك وأعداءِ رسولك صلى الله عليه وآله.

«اللهم ألْحقني بصالح من مضى، واجعلني من صالح مَنْ بقي، وخُذ بي سبيل الصالحين، وأعنِّي على نفسي بما تُعين به الصالحين على أنفسهم»[3].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٤٧٧١، وبحار الأنوار: ج٢٢، ص٤٣، باب ١٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٩٥، باب ١٢.
(٣) مصباح الكفعمي ص٥٩٩، دعاء السحر لعلي بن الحسين عليه السلام.

الحب في الله تعالى

لقد أمرنا الله سبحانه بحب من أحبَّه وبغض من أبغضه، خصوصاً سيِّدنا ونبيّنا محمداً وآله الذين بحبهم يكون الفوز العظيم، وببغضهم يكون الخسران المبين.

ما أوثق عُرى الإيمان:

ولو كنت، أنا وأنت في تلك الجلسة المباركة مع رسول الله ﷺ عندما سأل أصحابه عن أوثق عرى الإيمان، فقال بعضهم تأدّباً: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الصلاة أوثق عرى الإيمان، وقال بعضهم الزكاة، وبعضهم الصيام أو الحجُّ أو العمرة أو الجهاد... وغيرها من مظاهر وشعائر الإسلام المقدَّسة... لو كنت وإيَّاك هناك في تلك الجلسة، هل كان لنا أن نقول أكثر ممَّا قيل، وهل كُنَّا أتينا بجديد؟!

فلا بد أن تكون أوثق عُرى الإيمان في واحدة من هذه الواجبات الإسلامية العظيمة، إمَّا صلاةً أو صياماً أو زكاة أو حجّاً أو جهاداً... وماذا غير ذلك يُمكن أن نقول؟!... ولكن رسول الله ﷺ فاجأ الجميع، يوم ذاك، كما سنفاجأ نحن الآن حيث مدح كلَّ الأمور المتقدمة، وأشار أنَّ فيها فضلاً عظيماً، ثم تابع ﷺ

قائلاً: «... ولكنَّ أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله، والبغض في الله، وتولي أولياء الله، والتبري من أعداء الله»[١].

وحسم الجدل حول أفضل وأمتن وأوثق وأحسن روابط الإيمان، التي جمعت بين قلوب المؤمنين في صورة عزَّ نظيرها بل استحال بديلها. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

الحب والبُغض قربة لله تعالى:

فالإنسان في علاقاته مع بني جنسه، يحدد ويخطط لهذه العلاقة، وفقاً لمصالحه الشخصية الذاتية، فتخضع للقوة أو الضعف، وللديمومة أو القطع، وللاستمرار أو الانفصال، طبقاً لما تجرُّ لصاحبها من منافع ومردودات دنيوية.

أما المؤمن، فتكون علاقته مع إخوانه المؤمنين انصياعاً لأمر الله سبحانه، وخضوعاً لإرادته، وتقرُّباً لمرضاته جلَّ وعلا، فهو يحب أخاه المؤمن، ويخدمُهُ ويُدافع عنه، لا لمصلحة عابرة، أو طمعٍ زائل، وإنَّما تنفيذاً للواجب وطمعاً في الأجر والثواب الدائمين.

لذا أظهر لنا التاريخ حالات من العلاقات والروابط الإيمانية بين أفراد المسلمين، ومجاهديهم، وعلمائهم، ومستضعفيهم وأغنيائهم، وشبابهم وكهولهم ونسائهم، في صورٍ وميادين شتَّى، لا يمكن تفسيرها ولا فهمها إلاَّ في إطارها المقدَّس، وهدفها السامي.

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٢٥ باب الحب في الله والبغض في الله، ح٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

فالمؤمن يحبّ إخوانه المؤمنين كما يحبُّ الأنبياء والأوصياء والصلحاء، وإن لم يكونوا من أبناء عشيرته أو منطقته، كل ذلك حبّاً في الله. وهو أيضاً يبغض أهل الضلالة والكفار والمشركين والظالمين والفاسقين، وإن كانوا من أبناء قريته أو عائلته، كلُّ ذلك بُغضاً في الله وتبرِّياً من أعداء الله سبحانه.

إيمان ضعيف:

ولا شك أنَّ مَنْ فضَّل قريباً له أو نسيباً، لقرابته وانتسابه، . . . أي لو فضَّله على المؤمنين، فلا ريب أنَّ هذا الإنسان ناقص الإيمان، مزعزع الجنان، ويفقد الكثير من الفهم والشعور الإسلاميّ النقيّ الصافي. . . لأنَّه فضَّل صلة القرابة على الصلة الإلهيَّة الربَّانية، فيبعُدُ من قرب الله، ويُقرِّب من بعَّد الله، وكفى بذلك شقاقاً وجُرماً.

وقد جاء في رواية عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: «إذا أردت أن تعلم فيك خيراً، فانظر إلى قلبك، فإن كان يُحبُّ أهل طاعة الله، ويُبغض أهل معصيته ففيك خيرٌ والله يُحبّك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويُحبُّ أهل معصيته، فليس فيك خيرٌ والله يُبغضك، والمرء مع من أحب»[١].

أما الإمام الصادق ابن الإمام الباقر عليهما السلام، فيقول: «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله فهو ممَّن كمل إيمانه»[٢].

فالمؤمن الصادق، الراجي لرضا الله سبحانه، يعيش في حالة تنافس دائمة مع الآخرين، مثبتاً إخلاصه وفضلهُ من خلال أعماله،

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٢٦، باب الحب في الله والبغض في الله، ح١١.
(٢) المصدر نفسه: ص١٢٥، ح١.

التي تُزيّنها نيّته الطاهرة والخالصة لوجه الله الكريم، لأنَّه يعلم أنَّ التنافس بين المؤمنين، خدمة لبعضهم البعض، أمرٌ محبَّب ومطلوب شرعاً، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما التقى مؤمنان قط، إلاَّ كان أفضلهما أشدّهما حبّاً لأخيه»[١].

ثواب المحب والمبغض:

ونعلم أيضاً أنَّ الله تعالى لا بُدَّ أن يُثيب من جعل مقياس الحب والبغض مرضاة لله، فيضحي بكل شيء من راحة وأمن وسمعة، ومال ورفاهية، ليُحدد أولياء الله فينتمي إليهم، ويدافع عنهم، ويُحدد أعداء الله، فيبعد عنهم، ويحاربهم قربة إلى الله... فحبُّه، حبٌّ في الله، وبغضه بغضٌ في الله، ونظرته إلى العشيرة والقبيلة والأهل والأقارب نظرة سامية عالية، منزّهة عن الرغبات والمنافع الآنيَّة، وإنَّما تحديد هذه العلاقة، وصلاً أو قطعاً، لا يكون إلاَّ بعد تمام الاطمئنان بأنَّ الله سبحانه مريد لهذا الفعل فيفعله، أو مريد لتركه فيتركه.

وليس كثيراً على الله سبحانه أن يأجر هؤلاء أجراً عظيماً ممَّيزاً ومختلفاً، فيعطيهم ما لم يخطر على بال بشر... ويكفي في تصوير ذلك ما روي عن الصادق عليه السلام في قوله: «إنَّ المتحابين في الله يوم القيامة، على منابر من نور، قد أضاء وجوههم، ونوَّر أجسادهم، ونور منابرهم كل شيء، حتى يُعرفوا، فيقال: هؤلاء المتحابون في الله»[٢].

وتأمَّل معي في مفردات هذه الرواية المباركة، فسترى المنابر

---

(١) ميزان الحكمة: ح٣١٧٧، والكافي: ج٢، ص١٢٧، باب الحب في الله والبغض في الله، ح١٥

(٢) الكافي: ج٢، ص١٥٢، باب الحب في الله والبغض في الله، ح٤.

دليلاً على علوٍّ شأنهم، والنُّور والأنوار المتعددة تحيط بهم وتشعُّ منهم، بل إنَّ كلَّ شيء يستمد نوره منهم... بل إنَّهم يُعرفون بهذه الأنوار المميزة حتى يتردد بين الخلائق آنذاك عنوان عملهم الذي جعلهم في هذا الموقع وهو الحب في الله، فيجمعهم الله مع بعضهم في الآخرة لأنَّهم كانوا في الدنيا يتزاورون ويتجالسون ويعملون ويُخططون ويتألمون ويفرحون... ويخففون عنهم غربة هذه الدنيا الدنية.

ولو لم يكن لهم من الأجر إلاَّ ما تقدم فقط لكان في ذلك فضلٌ كبير، وعطاءٌ عظيم. فهل سنكون نحن من هؤلاء، فنحشر مع المتحابين في الله؟...

لعلَّنا حُرمنا في دُنيانا من الاجتماع بهم جميعاً، فلِمَ نحرم في الآخرة من ذلك؟ بل لِمَ نحرُمُ أنفسنا فلا ننتمي إلى قافلة المحبين في الله والمبغضين في الله، الموالين لأوليائه، والمعادين لأعدائه، فلا نكتفي بالصلاة والصوم والصدقة فقط، على أهمية هذه الأمور وفضلها، فلا نزهد بعبارات أخرى وأعمال أخرى نحن أحوج إليها في الآخرة، والدنيا أيضاً؟!

عملٌ خالصٌ لله سبحانه:

لقد روي: «أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: هل عملت لي عملاً؟ قال: صلّيت لك، وصُمْت وتصدَّقت وذكرت لك، قال الله تبارك وتعالى: أما الصلاة فلك برهان، والصوم جنَّة، والصدقة ظل، والذكر نور، فأيّ عمل عملت لي؟ قال موسى عليه السلام: دُلّني على العمل الذي هو لكَ، قال: يا موسى، هل واليت لي وليّاً، وهل

عاديتَ لي عدوّاً قط؟ فعلمَ موسى أنَّ أفضل الأعمال الحبُّ في الله، والبغضُ في الله»[١].

الحب والبغض الواجبان:

إذاً ربَّما يكثر صومُ الإنسان وصلاته، فيظن بنفسه خيراً، وأنَّه غير مفتتن في أمور دينه، وأنَّه قام بواجباته كاملةً. . . فيسهو عن أنَّ الموالاة لأهل الولاية واجبٌ، وأن المعاداة لأهل العداوة واجبٌ أيضاً، وإلا فما معنى الجهاد: أليس معناه نُصْرة فئة ومحاربة فئة أخرى؟! وما معنى «سبيل الله»: أليس معناها أنَّ هناك سبيلاً للشيطان ويجب أن نختار بينهما؟! وما معنى الحق: أليس معناه أنَّ هناك باطلاً بالمقابل؟! ومعنى الخير: أنَّ هناك شرّاً بالمقابل، ولهذا أهل، ولذاك أهل.

إنَّ هناك أهل الإيمان وأهل الكفر. . . والأنبياء في جانب، وأعداء الأنبياء في جانب آخر، . . . فيا أيُّها المصلي، ويا أيُّها الصائم: حدِّث نفسك وانظر من تحبّ؟ ولماذا؟ وانظر من تكره؟ ولماذا؟ لأنَّ الحب والبغض من صميم الإيمان، وجوهر الإسلام، فها هو رسول الله ﷺ يقول لبعض أصحابه: «يا عبد الله، أحبب في الله، ووال في الله، فإنَّه لا تُنال ولاية الله إلاَّ بذلك، ولا يجدُ الرجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه»[٢].

وهذا فُضيل بن يسار يأتي الإمام الصادق عليه السلام سائلاً عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فيقول له الصادق عليه السلام مستغرباً

---

(١) ميزان الحكمة: ح٣١٧٩، وبحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٥٢، باب ٣٦.
(٢) ميزان الحكمة: ح٣١٩٤، وبحار الأنوار: ج٢٧، ص٥٤، باب ١.

السؤال، مشيراً إلى بديهية جوابه: «وهل الإيمان إلاَّ الحبُّ والبغض»[١]؟ ثم تلا الآية المباركة: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[٢].

من علامات المحبِّين:

ومن علامات مَنْ حُبِّب إليهم الإيمان: أن يقضوا حوائج إخوانهم، ويعينوهم على نوائب الدهر ومصائب الزمن، وأن يقضوا ديونهم إن استطاعوا، ويدخلوا السرور إلى قلوبهم، ويروِّحوا عنهم، وأن يساعدوهم، ويؤدُّوا إليهم حقوقهم....

ومن علامات حبِّ الإيمان والمؤمنين أيضاً: الاستغفار لهم، والإجلال لمقامهم، والتودُّد والمواساة، والدّفاع عنهم، وأداء النصيحة إليهم، والنصرة، وتفريج الكربة، وإشباعهم... وأيضاً أن تحفظهم في غيبتهم، وتزورهم عند مرضهم، وتدعو لهم بظهر الغيب... وأن لا تظن بهم إلاَّ خيراً، وأن تضع أمرهم على أحسنه...

ولا ينتهي حقُّ المؤمنين هنا، بل حتى ولو ماتوا: تُشيِّع جنائزهم، وتخلفهم في الأهل والولد بعد موتهم، وفاءً لهم ما دمت حيّاً. كل هذا من مظاهر الحب في الله.

بغضٌ في الله عزَّ وجلّ:

أما البغض في الله، فهو أن تبغض بعض الناس لأعمالهم، من فسق أو فجور، أو إقامة على المعاصي، أو إصرار على المنكرات،

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٤١، باب ٣٦، نقلاً عن الكافي: ج٢، ص١٢٥، باب الحب في الله والبغض في الله، ح٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٧.

أو بُعدٍ عن الصراط المستقيم، أو ترك واجب، أو معاندة الدين... فالبغض هنا ليس لأشخاصهم بل لأعمالهم، وفيه أجرٌ كما أنَّ للحب في الله أجرٌ.

وجاء عن الصادق عليه السلام قوله: «كلُّ من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين، فلا دين له»[١].

فالحبُّ والبغض من ميزات الإسلام، التي انفرد فيها عن غيره من الأديان السماوية، فجمع تحت لوائه إخوةً متحابّين من أقصى الأرض إلى أقصاها، ومن مشارقها ومغاربها، فلو ذهبت إلى بيت الله الحرام في موسم الحجّ لرأيت أصنافاً من البشر من مختلف الجنسيَّات والقوميات والبلدان، ولكنهم يبتسمون لبعضهم البعض وتنفرج أساريرهم فيما بينهم. وفي هذا سرٌّ عظيم من أسرار عظمة الإسلام...

مسلمٌ وغريب!:

وقد عمل المستكبرون على التفريق بين المسلمين، حتى في بلدانهم، بل وحتى في القرية الواحدة،... وأصبحنا نسمع أنَّ هذا شاميٌّ، وهذا مصري، وهذا مغربي... ونسمع أنَّ هذا غريب، فقط لأنَّه ليس من قريتنا، أو أنَّه أجنبي لأنَّه ليس من بلدتنا... ووقعت الخلافات بين المناطق والحساسيات بين القرى، وما زالت هذه الحالة حتى يومنا هذا.

وما هذه المظاهر إلّا مظاهر جاهلية، قضى عليها الإسلام،

(١) الكافي: ج٢، ص١٢٧، باب الحب في الله والبغض في الله، ح١٦.

ويحاولون إحياءها من جديد، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾[١].

فلنتخل عن كل هذه الأفكار الدخيلة، ولنرجع إلى أصالتنا وصدقنا وإسلامنا المحمَّدي، فلعلَّنا نفوز بمقام عليٍّ، في جنَّات النعيم، ورضوان من الله أكبر. فقد روي عن رسول الله ﷺ: «سبعة يظلُّهم الله يوم القيامة، يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلّه: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه متعلّق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرَّقا، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسنٍ وجمال فقال إنِّي أخاف الله، ورجلٌ تصدَّق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما ينفق بيمينه»[٢].

وعنه ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقول: حقَّت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقَّت محبَّتي للذين يتناصرون من أجلي، وحقَّت محبَّتي للذين يتحابون من أجلي، وحقَّت محبَّتي للذين يتباذلون من أجلي»[٣].

فيا إخوتي الكرام، ويا أحبَّائي في الله سبحانه، ليس من المصادفة أن يكون من حق المؤمن علينا أيضاً أن نزوره في قبره ونسلِّم ونترحَّم عليه، ونتصدَّق عن روحه بعد وفاته، فهذا من الحب في الله.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) المحجة: ج٣، ص٢٨٧، وبحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٦١، باب ٥.

(٣) المحجة: ج٣، ص٢٨٦، ومستدرك الوسائل: ج١٢، ص٢٢٥، باب ١٤.

وليس من المصادفة عدم جواز دفن الكافر في مقابر المسلمين... وهذا بغضٌ في الله.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يحرمنا من هذه العبادة، وأن نكون ممَّن ينادي بهم المنادي، إذا جمع الله عزَّ وجلَّ الأولين والآخرين قائلاً: أين المتحابون في الله؟ فنقوم وندخل الجنَّة بغير حساب، فتتلقانا الملائكة مستفسرة عن سبب دخولنا الجنَّة بغير حساب، فنقول: نحن المتحابون في الله، كُنَّا نحبُّ في الله ونبغض في الله. فتردّد الملائكة: نعم أجر العاملين[1].

اللهم صلِّ على محمد وآله، وتولَّني في جيراني، ومواليَّ العارفين بحقّنا، والمنابذين لأعدائنا بأفضل ولايتك، ووفّقهم لإقامة سنّتك، والأخذ بمحاسن أدبك، في إرفاق ضعيفهم، وسدِّ خلَّتهم، وعيادة مريضهم، وهداية مسترشدهم، ومناصحة مستشيرهم، وتعهّد قادمهم، وكتمان أسرارهم، وستر عوراتهم، ونصرة مظلومهم، وحُسن مواساتهم، ... وإعطاء ما يجب لهم قبل السؤال...

«... يا مُنى قلوب المشتاقين ويا غاية آمالِ المحبين، أسألك حبَّك وحبَّ من يُحبّك، وحبَّ كلّ عملٍ يوصلني إلى قربك...»[2].

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٢٦، باب الحب في الله والبغض في الله، ح٨.

(٢) من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لجيرانه وأوليائه، انظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٨، باب ٣٢.

المراقبة الذاتية

المراقبة للأفعال فطرة:

يلاحظ الإنسان أنَّه يعيش في هذه الدنيا مع أصناف مختلفة من الناس، لهم مصالح وأهواء ومشارب، فلا يستطيع أن يتعدَّى عليها لئلا ينتقموا منه، أو يُحيلوه إلى السلطة القاهرة التي لا يملك تجاهها أي قوة رادعة.

في هذا الجو يشعر الإنسان بالمراقبة على أعماله فلا يعمل ما قد يسبّب له المصاعب أو المتاعب.

المراقبة للمؤمن سلوك دائم:

والمؤمن يعيش حالة دائمة من المراقبة أشمل وأعمق، فهو من حين الاستيقاظ عند الصباح، مروراً بسائر ساعات النهار وانتهاءً بساعة نومه يشعر بضرورة المحاسبة لأعماله، والمشارطة مع نفسه في الالتزام ببعض الأمور، أو تركها، والمراقبة لنفسه طوال فترات النهار في العمل والمدرسة والشارع والدكان والوظيفة، والمعاتبة، إذا انحرف عن جادَّة السبيل، والمجاهدة الدائمة التي تصبح جزءاً من شخصيته والتي تمثل الجهاد الأكبر والأعظم، وبه ينتصر على نفسه وعلى أعدائه ويفوز بالآخرة.

وأكَّد القرآن الكريم، وكذلك الروايات المباركات، على أنَّ الله سبحانه رقيب على كل نفس وعلى كل إنسانٍ بل على كل شيء، فلا يمكن للمرء في حالة من الحالات أن يخرج من مراقبة الله له واطلاعه سبحانه على نفسه وقلبه وضميره وعمله وسائر تحركاته وخلواته وتصرّفاته فهو خير رقيب، وخير حسيب، إذ يقول سبحانه في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾(١).

ومراقبته سبحانه لا تشملنا نحن فقط، بل تشمل أيضاً سائر المخلوقات والجمادات والبحار والمحيطات، والأشجار والنباتات، والحشرات والحيوانات، والأرض والسماوات، والكواكب والمجرات، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾(٢).

والمراقبة الشاملة هذه تحيط بكل صغيرة، ولو كانت بمقدار ذرة، وكلّ كبيرة بالغاً ما بلغت، حيث تُحصى وتحفظ ليوم لا ريب فيه، ولا ينفع سهونا عنها أو نسياننا لها، أن نتعجّب ونذهل يوم القيامة من دقة المعلومات المجموعة حول أعمالنا:

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١

(٢) سورة الأحزاب: الآية: ٥٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٦.

عندها لا تنفع المعذرة ولا الخوف ولا التبرؤ من الأعمال... وما هذه إلا أماني لا تنفع: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1].

كيف ننسى الملَكان:

ولا ننسى أن لكل واحد منَّا ملكين يسجلان عليه ما يفعل، ويتناوبان في الليل والنهار كشاهدين عتيدين على فعل الإنسان وعمله، ولتوكيد هذه المشيئة الإلهية في النفس الإنسانية، شاء الله لنا أن نسلِّم على الملكين مرات عديدة في الصلاة[2]، وذلك بقولنا لهما في آخر كلِّ صلاة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

حتى أننا نذكرهما في مناسبات شتَّى، ومنها في كل ليلة جمعة في دعاء كميل: بقولنا عنهما معترفين بدورهما في المراقبة: «أن تهب لي في هذه الليلة وفي هذه الساعة كل جرم أجرمته...» إلى أن نقول: «... وكلَّ سيِّئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتهم شهوداً عليَّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليَّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم...»[3].

وكذلك نقرُّ ونعترف بوجود الملائكة المقرَّبين المراقبين لنا، في دعاء السحر للإمام زين العابدين عليه السلام عندما نقول فيه: «... خيرك

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) بعد السلام على النبي الكريم وآله وعلى عباد الله الصالحين.

(٣) من دعاء كميل، انظر مصباح الكفعمي ص٥٥٩.

إلينا نازل، وشرّنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال ملكٌ كريم يأتيك عنَّا بعمل قبيح...».

فالمؤمن المراقب لنفسه عليه أن يتذكر دائماً وجود الملكين معه، الجالسين على يمينه وشماله، المراقبين لأعماله، والمتتبّعين لأقواله... عليه أن يخجل منهما... وهما على اتصال دائم به وإن غفل عنهما في بعض الأحيان، واللذين يقول الله تعالى في شأنهما: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾[2].

المراقبة دوماً:

وهذه الحال التي يعيشها المؤمن مع نفسه طوال نهاره، تسمى بحالة المراقبة، أي أنَّه دائم التتبُّع لنفسه، في كل حركة أو كلمة أو نظرة أو موقف... فهو قد شرط على نفسه، عند الصباح، أن يقوم ببعض أعمال الخير، كما شرط على نفسه بأن لا يقوم ببعض الأعمال التي لا تليق به كمتديّن ملتزم، إن كانت محرّمة أم كانت مكروهة... فهو، من حين خروجه من منزله، يراقب مشيته ونظرته للآخرين، كما يراقب تحرُّك لسانه، وصوته، وتصرّفات يده، أو قراراته في حق إخوانه، أو صفاء نيته، أو خلوص مساعيه، أو طهارة هدفه، أو حلال ماله، أو صحَّة نقاشه، أو حرصه على وقته...

وأن يكون، باختصار مفيد: في حالة تقرّبه من الله سبحانه

---

(١) سورة ق، الآيتان: ١٧ و١٨.

(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

ويستحق بها النظرة الإلهية... حيث لا فوز بعد هذا الفوز، ولا مُنْية بعد هذه المنية... فهو وإن تعب قليلاً إلا أن الراحة الأبدية بانتظاره.

ولقد وصف الإمام عليٌّ عليه السلام هذا المؤمن بقوله: «... نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه...»[١].

فليس له هدفٌ سوى رضا الله تعالى، وأن يحسن درجة العبودية الحقيقية التي وُهبت له، فيتذكر الله سبحانه، في السرَّاء والضرَّاء، وفي الفرج والشقاء، وفي الراحة والبلاء، وفي الحزن والهناء... ونفسه لا تتبدل ولا تتغيَّر في كل هذه الحالات، بل ثابتة راضية، إلى ربها ساعية.

ومن مواعظ الله سبحانه لعيسى ابن مريم عليه السلام: «يا عيسى كن حيثما كنت مراقباً لي»[٢].

ودعانا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإكثار من التفكُّر والاعتبار، بسِيَر الأولين الذين ذهبت أجسادهم، وبقيت أعمالهم، فيقول صلى الله عليه وآله: «عوِّدوا قلوبكم الترقُّب، وأكثروا التفكُّر والاعتبار»[٣].

جهدٌ وغربة:

ومن نافلة القول، يا أخي وحبيبي، إنّ حالة الترقُّب بحاجة إلى

---

(١) نهج البلاغة: خطبة المتقين ١٩٣.

(٢) ميزان الحكمة: ح٧٤٠٧، والكافي: ج٨، ص١٣١، ح١٠٣.

(٣) ميزان الحكمة: ح٧٤٠٤، وبحار الأنوار: ج٧٠، ص٨١، باب١٢٢، مع اختلاف يسير في الألفاظ

الكثير من الجهد والعناء والتعب، ولا تكون بسبيل سهل، وطريق مستوية، بل فيها المصاعب والمشاق المتعددة، من منازعة الهوى، وطول الأمل، وقلَّة العمل، وكثرة التأفُّف، وندرة المناصر، وفقدان المعين، والشعور بالغربة، ونفاد الصبر...

وبالمقابل هناك إغراءات الشهوات، وغفلات الناس، وسكرات العاصين، واستهزاء المتهتكين... ممَّا يوجب علينا أن نستعدَّ منذ الآن، ونهيّيء صبراً وصدقاً وسهراً وزهداً وهمّة وخشوعاً وكفافاً ودمعة... وقبل كل ذلك وبعده، توفيق من الله تبارك وتعالى، فهل نحن مستعدون لذلك، أيُّها الأخ المؤمن المراقب؟!.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «رحم الله امرأً، راقب ربَّه، وتنكب ذنبه، وكابر هواه، وكذب مناه، امرأً أزمَّ نفسه من التقوى بزمام... دائم الفكر، طويل السهر، عزوفاً عن الدنيا... قد وقر قلبه ذكر المعاد، وطوى مهاده، وهجر وساده، مُنتصباً على أطرافه... خشوعاً في السر لربّه، لدمعه صبيب، ولقلبه وجيب... راضياً بالكفاف من أمره...»[1].

المراقبة هجرة إلى الله عزّ وجلّ:

فلِمَ التأخير يا أخي، في أن نشدَّ الرِّحال للسفر إلى الله، فإنَّها هجرة مباركة، لا بد منها لكل نفس زاكية، إلى ربّها راضية. فاليوم الذي مضى لن يعود والساعة التي مضت لن تعود،... واللحظات التي تقرأ فيها أنت هذا الكلام، لن تعود،... فالساعة تزاحم الساعة، واللحظة تزاحم أختها... انتظر قليلاً لترى أنَّ هذا الوقت

---

(١) ميزان الحكمة: ح٧٤١٠، وبحار الأنوار: ج٧٤، ص٣٤٩، باب ١٤.

لن يعود إليك، ومهما فعلت من جهود مضاعفة... لن يعود إلى يوم القيامة...

ويا ليتك تعرف كيف يعود، ستكون عودته كشاهد على أعمالك، ومراقب على نفسك في ما فعلت من خير أو شر. «فما من يوم يأتي على ابن آدم إلا قال ذلك اليوم: يا بن آدم، أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فافعل بي خيراً، واعمل فيَّ خيراً، أشهدُ لك يوم القيامة، فإنَّك لن تراني بعدها أبداً»(١).

يا أخي المؤمن ويا عزيزي المراقب لنفسه، بكل بساطة: إنَّ الأيَّام التي مضت، ومهما كانت طويلة، لن تعود إليك، وإنَّ الأيَّام التي تأمل أن تأتيك في المستقبل، لا تضمن منها يوماً واحداً، فماذا تملك إذاً، غير يومك هذا الذي تعيشه الآن، وفقط، وهو رأس مالِك، فاجعل أيامك الماضية موعظةً، واجعل أيامك الآتية وهماً وسراباً قد لا تدركه، واغتنم يومك هذا الذي بين يديك، وكن لنفسك مراقباً، كن لنفسك محاسباً، كن لنفسك مجاهداً، كن لنفسك معاتباً... ليجعلك الله سبحانه فائزاً.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا إنَّ الأيام ثلاثة: يوم مضى لا ترجوه، ويوم بقي لا بُدَّ منه، ويوم يأتي لا تأمنه، فالأمس موعظة، واليوم غنيمة، وغداً لا تدري من أهله...»(٢).

فالصبر يا أخي المؤمن على مراقبة نفسك،... والصبر على القيام بطاعة الله، وإن لم يكن للنفس رغبة في ذلك، فلا تنس أن

---

(١) ميزان الحكمة: ح٧٤١٣، والكافي ج٢ ص٥٢٣، ح٨.
(٢) ميزان الحكمة: ح٧٤١٥، وتحف العقول: ص٢٢٠.

أصل المجاهدة في مخالفة الهوى... والصبر يا أخي عن معصية الله، فما هي إلا لحظات قليلة، وفترات يسيرة، تذهب باللذات، وتثقل بالتبعات.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «اصبروا على الدنيا فإنما هي ساعة، فما مضى منه، فلا تجد له ألماً ولا سروراً، وما لم يجىء فلا تدري ما هو؟ وإنما هي ساعتك التي أنت فيها فاصبر فيها على طاعة الله، واصبر فيها عن معصية الله»[١].

الشاهد هو الحاكم:

فلنتق الله يا عباد الله، فإنَّ الشاهد هو الحاكم، ولنعمل لسد الثغرات التي حصلت في أيَّامنا السالفة، وللاستزادة لما فرطنا في الأيام الخالية، ولنكثر من الحسنات لنغطِّي على السيِّئات، فنفوز كما قال عليٌّ عليه السلام: «فاز من أصلح عمل يومه، واستدرك فوارط أمسه»[٢].

«اللهم يا من ذِكره شرفٌ للذاكرين، ويا من شكره فوز للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، صلِّ على محمد وآله، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، وألسِنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة، فإن قدَّرت لنا فراغاً من شغل، فاجعله فراغ سلامة، لا تُدركنا فيه تبعة، ولا تلحقنا فيه سآمة، حتى ينصرف عنَّا كتَّاب السيِّئات بصحيفة خالية من ذكر سيِّئاتنا، ويتولى كتَّاب الحسنات عنَّا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا، وإذا انقضت

---

(١) ميزان الحكمة: ح٧٤١٧، والكافي: ج٢، ص٤٥٤، ح٤.
(٢) ميزان الحكمة: ح٧٤١٦، وغرر الحكم: ح٣٧٨١.

أيام حياتنا، وتصرّمت مدد أعمارنا، واستحضرتنا دعوتك التي لا بُدَّ منها ومن إجابتها، فصلِّ على محمد وآله، واجعل ختام ما تُحصي علينا كتبة أعمالنا توبة مقبولة لا توقفنا بعدها على ذنب اجترحناه، ولا معصية اقترفناها، ولا تكشف عنّا ستراً سترته على رؤوس الأشهاد يوم تبلو أخبار عبادك، إنَّك رحيم بمن دعاك ومستجيب لمن ناداك»[1].

إنك رقيب مَن لا رقيب له، وحسيب مَن لا حسيب له.

---

(١) من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام بخواتم الخير. انظر الصحيفة السجادية: ص٦٢، الدعاء ١١.

توصيات للمراقبين

إنَّ المتقين السالكين إلى الله سبحانه يراقبون أنفسهم، في حركاتها وسكناتها، لأنَّهم يعلمون أنَّه عزَّ وجلَّ لهم بالمرصاد، وأمامهم وقفة طويلة في عَرَصات يوم القيامة، فيخفِّفون من حسابهم يوم ذاك، بحساب أنفسهم اليوم، ويُراقبون أنفسهم اليوم، لأنَّه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[1] وبالمراقبة يكون الفلاح، والنجاح.

عمرك ثروتك:

والمتّقون السالكون إلى الله سبحانه حريصون، على كل وقت وعلى كل لحظة، فيعتبرون أن كلَّ نفسٍ من أنفاس العمر ثروة بحدِّ ذاتها، وإمهال من الله تعالى لهم، فمدَّ في أعمارهم وفسح في آجالهم، إفاضة من رحمته، وعطاءً من فضله، حتى يستزيد العباد، ويتأهّبوا للمعاد.

تصوَّر نفسك لو أنَّ الله تعالى قبض روحك، أفلا كنت تتمنى أن يرجعك إلى الدنيا ولو يوماً واحداً لتعمل صالحاً وتستفيد من كل لحظة فيه...

وهكذا عليك أن تكون، في شعورك وواقع أمرك، في أيامك

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩ و١٠.

وساعاتك، فلا تخسر رأس مالك، وهو عمرك، فتُبعث بحسرة يوم القيامة وحزنٍ على كل ساعة فاتتك دون أن تعمل بها، فتكون من المغبونين الخاسرين... وما أكثرهم يوم القيامة حتى أنَّ ذلك اليوم سمّي باسمهم في بعض الآيات: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[1].

توصياتٌ على طريق المراقبة:

وإليك يا أخي جملة من النصائح والتوصيات، ذكرَها أهل البصائر والمراقبات، بعد طول خبرة ومجاهدات، لتكون لك عوناً ودليلاً في بناء نفسك وتثبيتها على الصراط المستقيم.

ومن جملة هذه التوصيات:

أولاً: مراقبة الجوارح وإحصاء مساوئها.

ثانياً: مخالفة الهوى لأنَّها رأس الأمر للمراقبين.

ثالثاً: افتتاح الأعمال واختتامها بالخير.

وإن كانت هذه النصائح غير كاملة وشاملة، إلاَّ أنَّها الخطوة الأولى التي لو ظهر الصدق والإخلاص فيها، لتتابعت التوفيقات، وتوالت الهدايات، كما يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

أ ـ مراقبة الجوارح:

ولنبدأ بتفصيل التوصية الأولى وهي: مراقبة الجوارح وإحصاء مساوئها.

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

فعلى المراقب أن يعرف، أنَّ حقيقة المراقبة الحقيقية والصحيحة، لا تكون إلاَّ من خلال التتبُّع الدقيق، لكافة أعماله ونظراته وحركاته وقرارته وكلامه وانتقاله وجلوسه وتوجيهاته.

عهدٌ بعد صلاة الصبح:

فعليك أن تعاهد الله سبحانه بعد صلاة الصبح مباشرة أن لا تستعمل شيئاً من جوارحك في حرام خاصة: العين والأذن واللِّسان واليد والرجل، وإنَّما يكون ذلك بحفظ العين، عن كل حرام لا يجوز النظر إليه، أو نظرة تحقير لمسلم، أو تخويف لمستضعف، وإشغالها بالنظر إلى الحلال من مستحب ومباح، كالنظر إلى مخلوقات الله بعين التأمل، وإلى الماء والخضرة والطيور والثمار والحشرات، والكواكب والنجوم والفواكه والخضراوات، متأملاً في عظمة الخالق سبحانه، وكيف وهبها القوة، والجمال والنطق والألوان والاستمرار، وأن ينظر في كتاب الله وسنَّة رسوله، ويطالع الكتب الأخلاقية والسلوكية، والموعظة والحكمة.

أمَّا الأذن، فلا يسمعُ بها متعمداً، نميمةً أو غيبةً أو كذِباً أو بهتاناً، ويستعملها في طاعة الله، كطلب العلم والاستماع للحلال من الأقوال.

وأمَّا اللِّسان، بأن يحفظه عن قول المنكر خاصة أنَّه صغير الحجم، كبير التأثير والفعل، سريع التحريك في إيقاع الفتن، وإنشاء الأحقاد، وإيجاد الأعداء، والتفريق بين المرء وزوجه وأحبابه وجيرانه، وباللسان يحصل الكذب والشتم والنميمة والإيقاع بين الناس... وهو المترجم عن ظُلْمة القلب وسواده، فيعكس ما في نفس حامله من سوء وشرور. وهو إنما خُلق للعبادة والذكر والإرشاد

إلى سبيل الله والإصلاح بين الناس، والدعوة إلى الخير وتعليم الناس. . .، فليكن تحريكه للسانه ذكراً، ونظرُه عبراً، وصمته فكراً. . . وليتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١).

أما اليد، فلا يستعملها إلا فيما أمر الله سبحانه من حملِ المؤونة للعيال، والهدايا للأيتام، والمساعدات للمستضعفين. . . وأن يحمل بها السلاح للذود عن دين الله. . . ولا يبطش بيده فيهين مؤمناً أو يضرب مستضعفاً أو ينازع فقيراً. . .

وكذلك الرِّجل، عليه أن يسعى بها للعمل والتكسُّب والتجارة، ويعلم أنها من نِعَم الله عليه، ولولاها لم يخرج من المنزل، ولم يصعد سُلَّماً، ولم يَقُد سيارة، ولا تنقّل بحرّية بين غرف منزله، وطبقات بنائه أو في الشوارع والأزقَّة.

وليكن استعماله لرجله في السعي إلى المحاضرات والدروس ومجالس العزاء الحسيني، والمساجد وبيوت المحتاجين، وخدمة المؤمنين وزيارة الأرحام، والحراسة لثغور الإسلام. . . فلا يسع لفتنة أو شهادة زور، أو دفاع عن ظالم، أو يقصد معصية الله سبحانه.

فهذه جملة من التوصيات في شأن الجوارح التي يطغى بها الإنسان. . . ولا بد له أن يستعين بالله سبحانه على كل ذلك، وأن يتذكر قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾(٢) ويتذكّر أيضاً ما روي عن رسول الله ﷺ «اعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

(٢) سورة العلق، الآية: ١٤.

يراك»[١] وأن يؤكد ذلك في يقين نفسه، وقرارة قلبه، ولا يجعل الله من أهون المطَّلعين عليه، بل يُردِّد بصدق في نفسه: «كيف أنساك، ولم تزل ذاكري، وكيف ألهو عنك وأنت مراقبي...»[٢] ثم ليستحضر عظمة الله سبحانه في نفسه، وأنه العبد الفقير المحتاج إلى رحمة بارئه، طوال نهاره، وفي كل حالات مراقباته فيقول صادقاً: «...وما أنا يا ربي، وما خطري، هبني بفضلك، وتصدَّق عليَّ بعفوك، أي ربِّ جلِّلني بسترك، واعف عن توبيخي بكرم وجهك، فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرُك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنَّك أهون الناظرين إليَّ، وأخفّ المطلعين عليَّ، بل لأنَّك يا رب خير الساترين، وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين...»[٣].

فإذا تحسن سلوكه، وضبط أطرافه، واعتصم بالله عن الحرام، وأصبحت كلُّ جوارحه في عبادة، من عينه إلى لسانه إلى أذنه إلى يده ورجله، عندئذٍ حق له بسبب صدقه، أن يسجد ويقول: «...إلهي هل تُسوِّد وجوهاً خرَّت ساجدة لعظمتك، أو تُخرِس ألسنةً نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك، أو تطبع على قلوب انطوت على محبتك، أو تصمُّ أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك في إرادتك، أو تغلَّ أكفاً رفعتها الآمال إليك رجاء رأفتك، أو تُعاقب أبداناً عملت بطاعتك حتى نحِلت في مجاهدتك، أو تعذب أرجلاً سعت في عبادتك...»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٠٤، باب ٦.

(٢) من مناجاة الراجين للإمام السجَّاد عليه السلام، انظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٤، باب ٣٢.

(٣) من دعاء أبي حمزة الثمالي، انظر بحار الأنوار: ج٩٥، ص٨٤، باب ٦.

(٤) من مناجاة الخائفين للإمام زين العابدين عليه السلام، انظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٣، باب ٣٢.

ودون المراقبة الدقيقة، كيف تجرؤ على مثل هذا الموقف؟! وهذه المفاجأة؟!

وهنيئاً لمن كان واعظاً للناس بلسان فعله لا بلسان قوله.

ب ـ مخالفة الهوى:

وعلى المراقب أيضاً أن يحذر طوال نهاره وليله من هوى نفسه، وخطره، لأنَّ اتباع الهوى والشهوة يؤدي إلى الكثير من المعاصي التي طالما عمل ليقمعها ويتركها، فيسقط فيها الواحدة تلو الأخرى. فليتذكر ما روي عن رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[1]. فلا يُعطي النفس سؤلها، فيما تحبُّ وترغب، ويحذر من الأمور التي فيها شبهة حيث يهلك من دون أن يشعر، وقد ورد عن علي عليه السلام: «صلاح النفس مجاهدة الهوى»[2].

وقد كان رسول الله ﷺ إذا عُرض عليه أمران مباحان فيختار أيّهما أقرب إلى نفسه ويخالفه، وذلك ترويضاً لها وتأديباً حتى لا تجمح.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[3].

ويُنصح المؤمن بأن يحدِّد عيوب نفسه، وذلك من خلال تدوينها على ورقة، وأن يبدأ بمعالجتها واحدة واحدة، مع تشديد المراقبة على نفسه، في كل يوم حتى يقضي على الصفات البغيضة،

---

(١) ميزان الحكمة: ح١١٧٥٧، وبحار الأنوار: ج٦٧، ص٣٦، باب ٤٤.

(٢) ميزان الحكمة: ح٢٠٢٠٣، وغرر الحكم: ح٤٨٨١.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ و٤١.

سواء كانت غضباً أو غيبة أو كثرة في الكلام أو حسداً، أو لهواً أو تأخيراً في أوقات الصلاة أو إهمالاً لصيام شهر رمضان وقضائه، أو غفلة عن قراءة القرآن أو سوءاً في خلقه.

فعن علي عليه السلام أنَّه قال: «على العاقل أن يُحصي على نفسه مساوئها، في الدين والرأي والأخلاق والأدب، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب، ويعمل في إزالتها»[١].

افتتاح الأعمال وختمها بالخير:

وعلى المراقب أن يفتتح أعماله بالخير ويختمها بذلك، وكأنه يبارك أول العمل ليتفاءل في ما تبقَّى منه، ويرجو الخير الدائم ببركة الخير الأول الذي فعله. ولذلك يُنصح السالكون إلى الله بالصدقة في أول النهار وأول الليل، وكذلك في آخر النهار، حتى نبدأه ونختمه، أو نبدأ الليل، بفعل خير.

وقد دأب الصالحون من عباد الله على الاحتفاظ بوعاء في منازلهم، وهو ما نسميه «القجة» ويضعون فيه ما يتيسَّر لهم من المال، وإن كان قليلاً، في أول النهار وآخره، دفعاً للسوء والقضاء المحتوم. ثم يوزّعون هذا المال بعد فترة على مستحقيه من الفقراء والمحتاجين، وليس المهم قيمة الصدقة، ولكنَّ المهم أن تكون نيّتنا خالصة لمن نتصدَّق لوجهه الكريم سبحانه وتعالى.

وليس بالضرورة أن تكون الصدقة مالاً، بل ربما تكون خدمة أو مساعدة أو تفريج كرب أو تخفيف ألم أو زيارة تقوم بها أو حتى ابتسامة في وجه أخيك، وإذا لم يكن هذا ميسوراً أو لم تُوفَّق إليه

---

(١) ميزان الحكمة: ح٧٤٢٣، وبحار الأنوار: ج٧٥، ص٦، تتمة باب ١٥.

في أول النهار، فعليك بذكر الله، من تسبيح أو حمد أو شكر له سبحانه أو ذكر محمد وآله ﷺ.

فعن رسول الله ﷺ: «من استفتح أول نهاره بخير، وختمه بالخير قال الله لملائكته: لا تكتبوا عليه ما بين ذلك من الذُّنوب»(١).

وهل أفضل من هذا الخير ومن هذه البركة؟.

وروي عن علي عليه السلام، في وصيته لكميل، قال: «يا كميل بن زياد، سمِّ كلَّ يوم باسم الله، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، وتوكَّل على الله، واذكرنا وسمِّ بأسمائنا وصلِّ علينا واستعذ بالله ربّنا، وادرأ بذلك عن نفسك وما تحوطُه عنَّا، تكف شرَّ ذلك اليوم إن شاء الله»(٢).

هذه بِضع نصائح وإشارات إلى المراقبين السالكين إلى الله، لا بُدَّ منها في أول سعيهم، وبدء طريقهم في سفرهم إلى الله سبحانه... والباقي يأتي بفضل الله ورحمته...

سبحانك اللهم وبحمدك حيث فسحت بالأجل، وأمسكت عن أخذنا بذنوبنا، سبحانك: «... تستر الذنب بكرمك، وتؤخّر العقوبة بحلمك، فلك الحمد على حلمك بعد علمك، وعلى عفوك بعد قدرتك، ويحملني ويجرِّئني على معصيتك، حلمك عنِّي، ويدعوني إلى قلَّة الحياء سترك عليَّ، ويُسرعُني إلى التوثّب على محارمك معرفتي بسعة رحمتك، وعظيم عفوك يا حليم يا كريم...» «... إنَّ

---

(١) ميزان الحكمة: ح٧٤٣٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٢٦٨، باب ١١، وميزان الحكمة: ح٧٤٣٧.

لنا فيك أملاً طويلاً كثيراً، وإنَّ لنا فيك رجاء عظيماً، عصيناك ونحن نرجو أن تستر علينا، ودعوناك ونحن نرجو أن تستجيب لنا، فحقّق رجاءنا مولانا...»[١].

(١) من دعاء أبي حمزة الثمالي. مصباح الكفعمي، ص٥٩١، وبحار الأنوار: ج٩٥، ص٨٥، باب ٦.

لسان الإنسان

الحمد لله رب العالمين الذي خلق لنا اللسان، ليُفصح عمَّا في الجَنان، والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا محمَّد وعلى آله الطيبين الطاهرين، الذي يسّر الله سبحانه القرآن بلسانه، ليبشّر به المتّقين، حيث خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وجعل له أعضاءً وأطرافاً لها قدرة محددة ومعلومة، يستطيع أن يتنقل من خلالها إلى أعمال الخير أو الشر، فيثاب أو يعاقب بناءً على ما قدمت جوارحه من أعمال، وما قام به من أفعال، وعندها يحدد مصيره والمآل. كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

وما أدراك ما اللِّسان:

ويُعتبر اللسان من أخطر الجوارح في بدن الإنسان على الإطلاق، وذلك لخطورة دوره، وعظيم أثره، وكبير ساحته التي يتحرك فيها، إذ أنَّنا نلاحظ أن للِّسانِ أثراً عظيماً في حياة صاحبه وفي المجتمع، كأفرادٍ وكيان، وفي تحديد آخرة صاحبه، فهو إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النار، وذلك بالرغم من صغر حجم اللِّسان الذي لا يتعدى سنتميترات طولاً، وأقلَّ منها عرضاً، إلاَّ أنَّ تأثيراته عظيمة لا حدود لها، ولا نهاية لآفاقها.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

اللِّسان صغير أم خطير؛

فهذا العضو الإنساني، صغيرٌ في حجمه، ولكنَّه كبيرٌ في جرمه، وكذلك في خيره لمن أحسن ترويضه وتهذيبه، ولا يكون ذلك إلاَّ لمن وفقه الله سبحانه، وبعد جهاد مرير دائم، أعظم من جهاد الأبطال في ساحات النزال والقتال.

فباللسان يكون الإفصاح عمَّا يحوي القلب، ويُخفي من أسرار، ويُبطن من أخبار، حيث يكون اللسان مترجماً عمَّا في الصدور والقلوب والعقول.

وباللسان تتبادل الآراء والأفكار، وتُتناقل المعلومات والأخبار، فتتحد الأمم أو تختلف، وينشأ السلام وتستعر الحروب.

وباللسان أيضاً يكون الحب والبغض، والصدق والكذب، والغيبة وردُّها، والنميمة ودحضها، والافتراءات وإبطالها... والإشاعات وإفشال أهدافها... وبه تنشأ الخلافات، وتقوم التحالفات، وتشتد الصداقات، وتستمر العلاقات... وباللسان كذلك تَعرف مقدار صاحبه، وعلمه وخُلُقه وصدقه وفصاحته ورجاحة عقله، وقوَّة منطقه، ومتانة حجَّته...

وقبل كلِّ هذه الأمور، باللسان يخرج الإنسان من ظاهر الكفر إلى الإيمان، فيُنسب إلى أهل الإسلام، ويصبح من أصحاب الملَّة والأديان، من خلال إعلانه للشهادتين، فيُحقن دمه، ويُصان عرضه، ويُحفظ ماله... فينتمي إلى الموحدين، ويعيش في مجتمع المسلمين، بإقراره بخاتم النبيين، بعد إعلانه التوحيد لله سبحانه وحده لا شريك له ولا عديل.

بعد كل هذا، هل ما زال عندك شكٌّ، بأنَّ اللسان من مخلوقات الله العجيبة، ذات الأطوار الغريبة، والأدوار المهيبة؟ به يَستبين الكفر من الإيمان، والزندقة من الإسلام، والعدل من الطُغيان، . . . ويخبرك عن هذا الزمان وكلّ الأزمان، وعن الموجود والمعدوم، ولذلك فإنَّ هذا العضو ـ أعني اللِّسان ـ هو أخطر من سائر الأعضاء الأخرى كاليد والرِّجل والعين والأذن التي لا تتحرك إلاّ ضمن نطاق محدود، وساحة معلومة، وحدود ظاهرة، لا تتعدَّى في أحسن حالاتها الماديات، والأجرام المخلوقة والموجودة. . . وحتى عند الاستعانة بالمكبرات المجهرية المسماة بالميكروسكوب، أو التليسكوب، تبقى قدرة الأعضاء محدودة، باستثناء اللِّسان.

هل للِّسان حدود:

فباستطاعة اللسان أن يحدّثك عن الموجود والمعدوم، والمجسَّد والموهوم، والمتخيَّل والمظنون، وحتى عن الخالق، فضلاً عن المخلوق من الجمادات والحيوان والإنسان. فعن علي عليه السلام في غرر الحكم: «ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثَّلة، أو بهيمة مهملة»[١]. وعنه عليه السلام في غرر الحكم أيضاً: «اللسان تُرجمان الجنان»[٢]، أي أنَّه يُترجم ويفصح ويكشف عمَّا يُخفيه المرء في داخل صدره ولبِّه.

والخطورة العظيمة في اللسان، وسعيه وراء الخير والشر، أن تحريكه سهل جداً، واستعماله لا يحتاج إلى تكلفة أو مؤونة زائدة عن الحمد، أو صعبة التحقق، بل إنَّ كلَّ إنسان لو أراد أن يحرك

---

(١) غرر الحكم: ح٤٠٢٩، وميزان الحكمة: ح١٧٨٤٢.
(٢) غرر الحكم: ح٤٠١٨، وميزان الحكمة: ح١٧٨٥٣.

لسانه فيستطيع أن يفعل ذلك بأسرع ممَّا لو أراد أن يستعمل سلاحاً، أو أن يسعى بقدمه، أو أن يبطش بيده... فيُحرك لسانه في كل ميدان، ويُطلق له كلَّ عنان، ويُسخّره في خدمة الشيطان، حتى يكون مصيره إلى النيران والهوان، نستعيذ منها بالله المنَّان، ومن كل منافق عليم باللِّسان.

وكان رجل قد سأل رسول الله ﷺ عمَّا إذا كان الله سبحانه يؤاخذنا بما نقول، فأجابه مستغرباً: «وهل يُكبُّ الناس على مناخرهم إلاَّ حصائد ألسنتهم»[١].

هذه طريق جهنَّم:

فهلاّ علمت يا أخي المؤمن، الساعي إلى سبيل الرشاد، أن اللسان يعبِّد لك طريقاً إلى جهنَّم، ويعمل لإتمامها ليل نهار، وقيرُ هذه الطريق أي زفتها، خليط من الخوض بالباطل وفضول الكلام، والفحش والسّباب، والسخرية والاستهزاء، والكذب والنميمة،... بالإضافة إلى مزيج من فضول الكلام، والمجادلة والغناء، والتشدّق في تغيير لهجة الكلام، وتقليد أهل الكفر والفِسق والعصيان، كما نلاحظ هذا في بني قومنا الذين يقلّدون فئة من سكّان لبنان، في طريقة نُطقهم، وتلفّظهم بالحروف، وكلامهم المائع الممسوخ..

إنَّ المسلمين هؤلاء الذين يُقلِّدون الكفار في كل طرق معيشتهم، وحتى بأسلوب نُطْقهم وكلامهم إنما يسعون ليتمثّلوا بالكفار، ولو من هذه الجهة فقط، القابلة للازدياد... ولعمري فإن هذا خارج عن حقيقة الإيمان، ومجانب لصفات عباد الرحمان،

---

(١) الكافي: ج٢، ص١١٥، ح١٤١، والمحجّة: ج٥، ص١٩٣، وميزان الحكمة: ح١٧٩١٤.

الذين يمشون على الأرض هوناً، وبلا هوان، وعزّتهم من عزة الله المنان، وإذا سمعوا كلام الجاهلين قالوا سلاماً، تنزيهاً لألسنتهم عن فضول الكلام، وحذراً من تسويلات الشيطان، وحتى لا ينصرفوا عن السجود والقيام، ويستعينون بالله تعالى عن سوء المستقر والمقام بين جهنم والنيران. . .

المياعة والغنج:

فيا غاية عجبي ممن تشرَّفوا بالإسلام، وانتسبوا لأهل الإيمان، كيف يقتدون ببعض أهل لبنان، وغيرهم من أهل الضلالة والعصيان، فيُحركون ألسنتهم على شاكلتهم مياعة وغنجاً ودلالاً وخضوعاً، كأنهم استهانوا بنعمة الله عليهم، فحقروا عظيماً، وعظموا حقيراً وكفى بذلك ذلاً وهواناً أن يتشبهوا بالكفار، وقد قال الله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[1].

وكفى بذلك بعداً وشقاقاً عن أمر الله، أن نخالفه سبحانه، أو نخالف رسوله محمَّداً ﷺ فيما قضى من أمر فنقرِّب ما بعد، أو نُبعِّد ما قرب، ونرفع ما خفض، أو أن نخفض ما رفع، فكيف ندَّعي الإسلام، ونحن نقلّد الكفار في أساليب حياتهم ونعلم يقيناً أن الله سبحانه يُبغضهم ويبغض سلوكهم.

وقد كان رسول الله ﷺ على هذا النهج القويم حيث يحدّثنا أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام عنه ﷺ واصفاً هذه الحالة بوضوح وظهور، حيث يقول في نهج البلاغة: «وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقَّر شيئاً فحقَّره، وصغر شيئاً فصغره، ولو لم يكن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

فينا إلا حبُّنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله، لكفى به شقاقاً لله ومُحادَّة لأمر الله...»[١].

فهلمُّوا أيُّها المسلمون المؤمنون المتدينون، للاستنان بسنن رسول الله ﷺ، ولنعوِّد أنفسنا بغض ما أبغض الله ورسوله، قربةً إلى الله، وتحقير ما حقر الله ورسوله، قربةً إلى الله، وتصغير ما صغر الله ورسوله، قربة إلى الله سبحانه، ورغبة في حشرنا مع رسوله المصطفى محمد ﷺ، فقد آن الأوان، لكي نستعيد شخصيتنا وكرامتنا وعزَّتنا، ونترك عادات الكفار، وأعمالهم البغيضة إلى الله سبحانه.

نعوذ بالله من خطر اللّسان:

إذاً، من يُطلق للسانه العنان في التحرك، دون مراقبة أو محاسبة يكون بذلك مُعبِّداً طريقه إلى جهنَّم، والعياذ بالله، ويكون أيضاً قد جانب طريق الإيمان، وحاد عن سبيل الله الملكِ الديان، بل وعلى الأرجح، وفي أكثر الحالات، لا يصح إطلاق اسمِ المؤمن أو المتدين على من لم يُقوِّم لسانه، ويُصحّح اعوجاجه، حيث ورد عن رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد، حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه، حتى يستقيم لسانه»[٢].

إن سائر أعضائنا تخشى من تصرفات اللسان وسقطاته وأعماله المظلمة المتهورة، فالأعضاء عند كل صباح تكون خائفة منه في كل موقع أو حادث تخشى أن يورطها في ما لا تحمد عقباه، من قتال

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٧٨٧٠، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٨٧، باب ٧٨.

أو تهمة أو باطل أو غيبة أو سوء، فتضطرُّ اليد عندئذٍ أن تخوض معركة لا دخل لها بها، أو أن تقف موقفاً محرجاً لا تملك منه شيئاً. . . وكذلك الرِّجل في سعيها أو هربها أو مشيها، والعين في نظرها أو غمضها أو تعجُّبها، والأُذن والقلب. . . كل ذلك فقط نتيجة سقطات اللسان وتهوره وطيشه.

وفي هذا المجال روي عن رسول الله ﷺ: «إذا أصبح ابنُ آدم، أصبحت الأعضاء كلُّها تستكفي اللسان، أي تقول: اتّق الله فينا فإنَّك إن استقمتَ استقمنا، وإن اعْوججت اعوججنا»[١].

ولذا كان عذاب اللسان أعظم من عذاب أيِّ عضو من الأعضاء الجسدية، لأن جريمته أكبر، وهو السبب في أكثر الأحيان، في توريط سائر الأعضاء، حيث يخوض بها في أعراض الناس وأسرارهم وكراماتهم وعفّتهم، وخصوصياتهم المختلفة.

روي عن رسول الله ﷺ في شأن تعذيب اللسان أكثر من غيره من الجوارح، قال ﷺ: «يُعذب الله اللسان بعذاب لا يُعذّب به شيئاً من الجوارح، فيقول: يا رب عذَّبتني بعذاب لم تعذِّب به شيئاً من الجوارح؟! فيُقال له: خرجت منك كلمة فبلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسُفك بها الدم الحرام، وانتُهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفَرْج الحرام»[٢].

فيا أخي وعزيزي وحبيبي، كم من مرَّة تورطنا في مشكلة، أو سوء تفاهم، بسبب كلمة نطقنا بها، أو جملة خرجت من صدر

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٧٨٧٢، وشرح نهج البلاغة: ج١٠، ص١٣٧.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٧٩٢٦، والكافي: ج٢، ص١١٥، ح١٦.

عجول، أو حالة غضب، أو عجلة عمياء، أو بسبب التفاخر والتكبُّر والاستعلاء وحب الظهور، ولو على حساب إخواننا المؤمنين.

كم من مرة وقعنا في مشكلة بسبب كلمة متسرِّعة لم نكن نريد لها أن تخرج، وكان حزننا عليها بعد ذلك عظيماً، ولكن عليك أن تعلم أنَّك أنت ملك الكلام، قبل خروجه، فإذا خرج أصبح هو الملك والسلطان عليك، فنعوذ بالله أن تكون كلماتنا علينا حجَّة يوم القيامة، لا لنا، ونسألك «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد واجعل ما يُلقي الشيطان في روعي من التمنّي والتظنّي والحسد، ذكراً لعظمتِكَ وتفكُّراً في قدرتك، وتدبيراً على عدوِّك، وما أجرى على لساني من لفظة فُحش أو هُجر أو شتم عِرض أو شهادة باطل أو اغتياب مؤمن غائب، أو سب حاضر وما أشبه ذلك نُطقاً بالحمد لك، وإغراقاً في الثناء عليك، وذهاباً في تمجيدك، وشكراً لنعمتك، واعترافاً بإحسانك، وإحصاء لمِننك»[١].

---

(١) من دعاء مكارم الأخلاق. انظر الصحيفة السجادية: ص٩٦، الدعاء ٢٠.

نصيحة : إلى كل إنسان يملك لساناً

الحمد لله رب العالمين، الذي أرسل النبيين، ووهبهم من رحمته، وجعل لهم لسان صدقٍ علياً.

تعلّم الصمت:

بما أن الأخطاء والمصاعب التي يمكن أن يسبّبها اللسان، كثيرة وعديدة، كان لا بد لكل عاقل فهيم، أن يتحصّن ويحتاط من هفوات لسانه، المتوقعة الحدوث في كل يوم مرات عديدة، وأن يتعلم الصمت كما يتعلم الكلام.

ومن جملة التحصينات اللازمة لذلك، أن تستنير بالنور الأكمل، بكتاب الله المجيد، وبالأنوار الزاهرة، أي بمحمد وعترته الطاهرة، لكي تُحسن الهداية، وسبيل السداد، ونصيحة الهداة.

فيُنصح الإنسان أن لا يتكلم إلا بمقدار الضرورة فقط، إن وجد لكلامه مكاناً مناسباً له، وكأنَّ الأصل عنده أن لا يتكلم إلا في حالات محددة، وحتى إذا كان لا بد من الكلام، فعليه بالاختصار قدر الإمكان، وتبيان المعنى بأقل قدر ممكن من الألفاظ المختارة بدقة، حتى لا يخوض في الحرام، أو اللغو، أو في أحسن الحالات في فضول الكلام، الذي يؤثر سلباً على مسيرته في الدنيا، فيفضح

نفسه بنفسه، ويُظهر عورته بعد سترها، ويفضح سرَّه بعد إخفائه، فيكون كالمتآمر على نفسه، يُسيءُ إليها ويَحْسب أنه يُحسن صنعاً.

ويُذكر أن بعض الصالحين كانوا إذا رأوا من أنفسهم رغبةً وشهوةً إلى الكلام، امتنعوا عن ذلك، ولا يتكلمون إلا إذا وجدوا من أنفسهم إدباراً وضعفاً عن الرغبة في الكلام، فعندها ينطقون بقدر الحاجة فقط، ويختصرون قدر المستطاع، لعلمهم بأنهم محاسبون على كل كلمة ينطقون بها، حتى ولو كانت من حسن الكلام، فكيف إذا كانت من فضوله، أو لغوهِ، أو مُنكَرهِ. حتى أنَّ بعضهم، بحسب ما ذكر، كان في بداية مجاهداته وتعويد نفسه على قلَّة الكلام، وحفظ اللِّسان، كان يضع بحصة تحت لسانه، لتكون له مذكرةً إذا نطق.

وروي عن علي عليه السلام في نهج البلاغة: «تكلموا تُعرفوا، فإنَّ المرء مخبوءٌ تحت لسانه»[1]. وعنه عليه السلام في غرر الحكم: «كلامُ الرجل ميزان عقله»[2].

الصِّدق عنوان:

ويُنصح الإنسان أن يكون صادقاً في قوله إذا تكلَّم، فلا يُظهر خلاف ما يُخفي، ولا يُبطن سوءاً ويُظهر شراً، لأن اللسان وإن استطاع في كثير من الأحيان أن يموِّه الحقيقة أو يخفيها، إلاَّ أنَّ ذلك يبقى لأمد محدود، وزمن معدود، حيث لا بد للحقائق أن تظهر يوماً من خلال هفواته وزلاَّته وسقطاته، وسوء تخطيطاته، فيتخبط بين كلام الأمس واليوم، ويسهو عن الرواية السابقة

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٩٢، وميزان الحكمة: ح١٧٨٤٨.
(٢) غرر الحكم: ح٤٠٣٢، وميزان الحكمة: ح١٧٨٥٢.

واللاحقة، وينسى ما أظهر فيما مضى، وما يظهر اليوم، ويغفل عن سلوكه الفائت والآتي، فيقع في ما كان يحذر منه، ويَلقى ما كان قد هرب وفرَّ منه، فهو حذر من كشف ما مضى، وحذر من فضيحة ما يأتي. كل ذلك لأنه كان دائماً في لسانه مجانباً للحقيقة، متنكّباً عن طريق الصدق.

وينصح أن تكون صادقاً مع نفسك، ومع الناس، وإلاَّ فزلاَّت لسانِك لك بالمرصاد، وهفوات ألفاظك تعدك بسوء المعاد. فقد روي عن علي عليه السلام في نهج البلاغة: «ما أضمر أحدٌ شيئاً إلاَّ ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»[(١)].

ويُنصح الإنسان أن يلتفت إلى أن الكلام الذي يجري من اللسان، يُمكن أن يعنون بعنوان الخير، كما يمكن أن يعنون بعنوان الشر، كذلك، يمكن أن ينطق اللسان بالكفر كما يمكن أن ينطق بالشكر والامتنان، ويمكن للسان أيضاً أن يسير على سبيل الرشاد كما يمكن أن يسير على سبيل الضلالة، فاللسان حصان صاحبه، قد يحمله إلى ماء أجاج شديد الملوحة، وقد يحمله إلى ماء عذب شديد الصفاء.

وجوارح الإنسان المختلفة هي كالإنسان، مهديَّة إلى السبيل إمَّا شاكرة وإمَّا كفورة، هكذا، اليدُ لها سبيل واحد فقط، يمكن أن تكون سبيل شكر فقط، ويمكن أن تكون سبيل كفر فقط، والرجل والعين والأُذن والسمع كلٌّ منها لها سبيلٌ واحد أيضاً.

واللسان كذلك لا يخرج عن هذه القاعدة، ولا يشذ، فيمكن

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٦، وميزان الحكمة: ح١٧٨٥١.

أن تحمله على الخير، فيحملك إليه، ويمكن أن تحمله على الشر، فيحملك إليه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

حَبْسُ اللِّسان:

فالعاقل حقاً هو الذي يضع لسانه تحت المراقبة دائماً، فيحبسه ويُحسن الإقفال عليه، ولا يستمع إلى وساطات النفس الأمَّارة بالسوء لإخراجه من سجنه، ولا يقبل دعوة الشهوة أو الغضب، ليعتِقَ اللسان من حبسه وسجنه، بل يُنصت إلى نداء العقل فقط الذي يأمره بالحفاظ على الدرهم والدينار والذهب والفضّة، ولا تظنن أن هذه الماديات العارضة هي أعظم من اللسان المقرِّر لحياة الإنسان، المعلِن لإيمانه وتوحيده، المتبرِّىء من الكفر والشرك، الذي أعزَّه بعد أن كان ذليلاً.

يقول الإمام الباقر عليه السلام في تحف العقول: «إنَّ هذا اللِّسان مفتاح كلّ خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضّته»[٢].

ومن هنا ينصح بحبس اللِّسان أبداً، إلا في حالات خاصة، لإظهار آية محكمة، أو سنَّة تُتَّبع، أو أمرٍ بمعروف، أو نهي عن منكر، أو لهوٍ في حلال من غير فحش أو تعدٍّ.

موقع اللِّسان من القلب:

ويُنصح الإنسان، إذا كان لا بد من الكلام، أن يفكر في كلامه قبل إنشائه، وأن يعقله قبل إظهاره، وأن يعرضه على قلبه قبل البوح

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٢) تحف العقول: ص٢٩٨، وميزان الحكمة: ح١٧٨٦٨.

به، وإن لم يفعل ذلك، فلا يخلو أن يكون أحمق، أو منافقاً: فهو أحمق إن كانت نيّته حسنة، ومنافق إن كانت فيه صفات النفاق، وكلاهما ينطقان بلا تدبير ولا وعي ولا تفكير.

يقول علي عليه السلام: «إنَّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنَّ قلب المنافق من وراء لسانه: لأنَّ المؤمن، إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبّره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شرّاً واراه، وإنَّ المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له، وماذا عليه»(١).

واشتهر عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة كلامه، المفعم بالحكمة والإدراك، حيث يقول عليه السلام: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»(٢). وفي هذا إشارة جليَّة إلى أن لسان العاقل يختلف كلياً عن لسان الجاهل، ونُطْق هذا يختلف عن نطق ذاك، وبالتالي يختلف المنطقان عن بعضهما لاختلاف موقِعِهما.

كما يتبين من كلام علي عليه السلام أن لسان العاقل يكون وراء القلب، فلا بد له إذا أراد المرور، أن يمر عبر القلب، فيتزوَّد منه، كما يصفِّي ما قد يحمله من شوائب، وذلك في مصفاة القلب والفطرة، وبمعنى آخر: إنَّ المؤمن العاقل لا ينطق إلا بعد عرض كلامه على القلب. أما الأحمق فقلبه وراء لسانه، ولذا ينطق من دون أن يمر على القلب، ولا يدرك أصلاً أهمية القلب أو العقل أو الفطرة أو الصفاء.

وهذا الفرق بين العاقل والأحمق، يجري أيضاً بين المؤمن

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦، وميزان الحكمة: ح١٧٨٧٧.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار ٤٠، وميزان الحكمة: ح١٧٨٧٥.

والمنافق، حيث ذكر هذا المعنى، والمعاني المتقدمة جميعها في رواية واضحة الدلالة عن رسول الله ﷺ حيث يقول: «إنَّ لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبَّره في قلبه، ثم أمضاه بلسانه، وإنَّ لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همَّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبَّره بقلبه»(١).

ونحن نرى، من خلال حياتنا اليومية، أن الحكيم هو الذي يحسِب حساباً شديداً لكل كلمة يتفوّه بها، فيُخرج كلامه بهدوء، ورويَّة، واتّزان كأن فمه يغترف من معين قلبه، بينما نرى في كل يوم أن الأحمق يتكلم كثيراً دون توقّف ولا التفات إلى عواقب الأمور، أو حذرٍ من مخلَّفات كلامه ولوازمه، وكأن فم الأحمق يلوك قلبه مهلكاً إيَّاه، من دون اعتبار لقيمته المعنوية.

وقد صوَّر الإمام العسكريّ ـ والد الإمام المهدي عليه السلام ـ هذا المشهد في أكثر من مكان كما ورد في كتاب بحار الأنوار، حيث جاء عنه قوله عليه السلام: «قلب الأحمق في فمه، وفم الحكيم في قلبه»(٢).

من هنا ينصح بأن نعقل ما نتكلم ونعرضه على القلب، لا أن ننطق بما لا يُعقل، فنحمل لا سمح الله بعض صفات أهل النفاق والحمقِ، بينما المؤمن هو من أهل العقل والفهم.

اللِّسان القاتل:

كما يُنصح الإنسان أيضاً من أجل سلامة نفسه، أن يحفظ لسانه،

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٧٨٧٨، ومجموعة ورّام: ج١، ص١٠٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣١٢، باب ٧٩ نقلاً عن تحف العقول، وميزان الحكمة: ح١٧٨٧٦.

وخاصة من أجل سلامة نفسه على صعيد السمعة الاجتماعية، أو من جهة قلَّة المشاكل، أو أن يصون نفسه من القتل وإزهاق الروح.

ففي مضمون رواياتٍ عديدة وكثيرة، إشارة إلى أن الإنسان يمكن أن يُقتل أو يُهدر دمه أو تُزهق روحه أو تقطع رقبته نتيجة كلمة قالها، أو لفظٍ نطق به، وهذا أمرٌ واضح في مجتمعاتنا كثيراً، وليس بحاجة لكثير كلام أو برهان ودليل، إذ كم من الضحايا والقتلى الذين سقطوا بعد خلافات حادة، شخصية أو عائلية أو ثأرية، لخلاف على كلمة سُمعت، أو نُقلت، أو أظهرها صاحبها، أو تحدَّى بها الآخرين، أو أغضبهم، أو هتك سرَّهم، أو كشف أمرهم، أو استفزَّهم، أو حمل عليهم، أو هدَّدهم... فكانت النتيجة وبالاً عليه دفع ثمنه حياةً وعمراً لا يملك غيره.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «فتنة اللِّسان أشد من ضرب السيف»(١).

وورد عن علي عليه السلام: «زلَّة اللِّسان تأتي على الإنسان»(٢).

ومن باب التذكير فقط، أن خطأ اللسان من الصعوبة بمكان أن يصحح، وقد يصحح بعد فوات الأوان، حيث لا ينفع التصحيح ولا الاعتذار، ولا الندم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء يعثر برجله فيبرى، ويعثر بلسانه فيُقطع رأسه»(٣).

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٧٨٩٧، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٨٦، باب ٧٨.
(٢) غرر الحكم: ح٤١٩٨، وميزان الحكمة: ح١٧٨٩٢.
(٣) ميزان الحكمة: ح١٧٨٩٥، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٩٣، باب ٧٨.

ولا يَسْلم الإنسان، إن هو أطلق المجال للسانه، من كلام الناس، وردودهم ودفاعهم عن أنفسهم، وتعليقهم على كلامه، ودحضهم لإشكالاته، وإبطالهم لتعليقاته... لا يسلم من هذا، حتى ولو سلم من سيوفهم... فمن طَبْعِ أي شخص أنه يرد على من اعتدى عليه، ويحاول أن يُبرّىء ساحته قدر المستطاع، ولا يسكت عن الاتِّهامات إن وجد لها مهرباً، ويردُّ على الشائعات والأقاويل.

وخير لنا أن نتبع ما قاله رسول الله ﷺ من أن: «راحة الإنسان في حبس اللِّسان»[1]. وما روي عن علي عليه السلام في ثواب الأعمال: «من حفظ لسانه ستَرَ الله عورته»[2]، وكذلك ما روي عن الصادق عليه السلام أيضاً في ثواب الأعمال: «نجاة المؤمن في حفظ لسانه»[3].

وخلاصة القول: إنَّ سلامة الإنسان الشخصية والاجتماعية، إنَّما تكون بحفظ لسانه. فنسأل الله تعالى أن يصلّي على محمد وآل محمد وأن يغفر لنا ما تقربنا به إليه بألسنتنا، ثم خالفته قلوبنا. «اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ، وسقطات الألفاظ، وشهوات الجَنان، وهفوات اللِّسان»[4].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٧٨٨٦، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٨٦، باب ٧٨، نقلاً عن جامع الأخبار.
(٢) ثواب الأعمال: ص١٨٢، وميزان الحكمة: ح١٧٨٨٢.
(٣) جامع الأخبار: ص٩٣، وميزان الحكمة: ح١٧٨٨٤.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٧٨.

إحصاء الكلام

الحمد لله رب العالمين الذي يرينا الآيات في الآفاق وفي أنفسنا، وخلق الإنسان ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، إذ يتميز عن غيره من المخلوقات الأخرى، بقدرته على النطق والبيان، والإفصاح عمَّا في الجَنان.

اكتب كل ما تتكلّم!:

فهل فكرت يوماً، يا أخي المؤمن، أن تُحصي عدد كلماتك في اليوم؟! وهل فكّرت أن تكتب كلَّ ما تتكلم به على دفتر تحتفظ به مثلاً؟!!!

إنَّ هذا، وبحسب التفكير المتبادر إلى الذهن، يبدو صعباً نوعاً ما، ومستهجناً في الوقت ذاته. وأحسبُك الآن، وعندما قرأت هذه الكلمات، قد ابتسمت قليلاً، وتعجّبت من طرافة هذه الفكرة المسلّية... إلا أنها ليست عملية، وقد تكون مضنية... أنت الآن تفكر في نفسك بجدية وتتساءل أخالك تقول: أحصي كلَّ كلامي؟..!! هذا كثير والله ومتعب!!!... وتتساءل أيضاً: أكتب كلَّ كلامي...!!! وماذا أفعل بكلامي الكثير؟! قد يرهقني كتابةً وتمحيصاً واستقصاءً وتتبّعاً... فإنَّني في بعض الأحيان لا أُدرك نفسي، من كثرة كلامي وغزارته وسرعته وتواتر الأفكار... بل في

أحيان أخرى أضطر لمقاطعة الآخرين، أو محاولة رفع الصوت حين يتكلم الآخرون في محاولة منّي للإفصاح والتعبير عمّا يجول في خاطري. «وفي الحقيقة إنَّ كلامي كثير، لا أعتقد أني سأقدر على كتابته أو إحصائه، . . . وبصراحة أكثر، لعلَّ دفتراً واحداً من خمسين صفحة، لا يتّسع لكلامي في يوم واحد. . . إنَّ الفكرة جملية ومسلية، غاية الأمر أنها متعبة ومقيِّدة لي عن كثير من واجباتي الشخصية والعملية».

هذا مجمل عن حالتك النفسية الآن، وأنت تقرأ هذا الاقتراح.

والآن، نستطيع أن نستفيد من شعورك هذا، الذي بدأت بالإحساس به منذ لحظات، نستطيع أن نستنتج أن كلامك كثير جداً، وهذا باعترافك وإقرارك.

ماذا نتكلَّم؟

فيا ترى، هذا الكلام الكثير والغزير الذي نتفوّه به في كل يوم، ونحرق ساعاتنا في استهلاكه، واستهلاك أوقاتنا وأفكارنا وأعصابنا. . . ما هي نوعيته؟

هل هو كلام واجب شرعاً أو عقلاً فنحرص عليه؟! أم إنَّ تمام كلامنا مستحبٌّ فنرجو الثواب من ورائه، والأجر الجزيل؟! أم إنَّه كلامٌ، لا محبوبية له عند الله سبحانه، وإن لم يكن حراماً، لكنه يطيل الوقوف في يوم القيامة للحساب؟!

كلُّ هذا طبعاً، مع غضِّ النظر والتجاوز عن الكلام الحرام، تسامحاً، ولو كُنَّا نعلم جميعاً أن كلامنا يتخلّله أصناف شتى، من

الغيبة والنميمة والكذب والفتنة، والسعي للإيقاع بين الناس، والشتيمة والسّباب والمستقبح من الكلام.

إذاً هل فكّرنا يوماً بماهيَّة ونوعية كلامنا الذي نصنعه في كل يوم، بل في كل ساعة، والذي يرسم صورة واضحة عن شخصيتنا، وما تخفي الصدور؟.

قيل: الكلام أقسام أربعة:

لقد أشار أحد العارفين إلى تأمّل لطيف، وهو: أنه قسَّم الكلام الإنساني إلى أربعة أقسام على وجه التقريب والإجمال.

فالقسم الأول هو ضرر محض، والقسم الثاني هو نفع محض، والقسم الثالث فيه ضرر ومنفعة، والقسم الرابع ليس فيه ضرر ولا منفعة.

والعاقل هو الذي يجتنب، ما فيه ضرر وذلك لضرره، . . . ويكون قد استغنى عن ربع الكلام، والعاقل أيضاً يجتنب ما فيه ضرر ومنفعة، . . . ليجتنب الضرر ويكون قد استغنى عن الربع الثاني من الكلام، ويجتنب أيضاً الكلام الذي فيه ضرر ولا منفعة. . . لأن فيه مضيعة للوقت، وهدراً للعمر، وتضييعاً للزمان. . . فيستغني عن الربع الثالث للكلام. ويكون بذلك قد أسقط من حياته، ومن يومياته ثلاثة أرباع الكلام، وبقي الربع فقط. . .

فما هو رأيك، وأنت ترى أن القسم الأكبر من كلامك لا قيمة له، بل إنَّ بعضه يجب الإقلاع عنه، ولا يبقى لك إلا الربع فقط، والذي يحتاج منك إلى كمال العناية والمراقبة، حتى لا يجنح بك

إلى الرياء لا سمح الله أو التصنُّع أو تزكية النفس، ممَّا يضطرُّك إلى اختزاله أيضاً؟.

أفلا تكون كما قال ﷺ: «من صمت نجا»[(١)]؟

لقد أوتي النبي والله، جوامع الكلم، ومنتهى الإحاطة بالفصاحة والبلاغة، ومع ذلك لم يكن ليتكلم إلا بمقدار الحاجة، وغاية الاختصار.

وفي مجال النصيحة بإحصاء الكلام وعدِّه قال علي عليه السلام: «اخزِن لسانك، وعُدَّ كلامك»[(٢)].

فربَّما لو عدَّ الإنسان كلامه، وجمعه في أوراق محددة، كأن يحصي كلامه لمدة ساعة مثلاً عندما يكون بين الناس... ربما يستطيع أن يتأمل أكثر بأخطائه وسقطاته، وما يمكن أن يهمَّ لسانه به، من كثرة الزلاَّت والمطبَّات.

كثير الكلام كثير الخطأ:

روي عن رسول الله ﷺ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به»[(٣)].

ويكفيك أن كثرة كلامك، تُعرِّك لأخطاء كثيرة، ليس أقلّها الوقوع في الأخطاء والفتن، وتعريض النفس للخطر والهوان، كما أن كثرة الكلام تؤدي إلى قسوة القلب، وجفاء الروح، والتلهي عن الذكر، والتأمُّل، والتفكُّر، والاتّعاظ... وتجعل الإنسان يُهمل بعض

---

(١) المحجة: ج٥، ص١٩٩، وبحار الأنوار: ج٧٤، ص٩٠، باب ٤.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٧٩٢٢ نقلاً عن بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٨١، باب ٧٨.
(٣) المحجة: ج٥، ص١٩٦، وإرشاد القلوب: ج١، ص١٠٤، باب ٢٧.

العبادات، بينما الأجدر به، لو استبدل كثرة كلامه، بأن قرأ في كتاب الله المجيد، أو سنَّة الأنبياء والأوصياء والصالحين، مثلاً، واستفاد من مواعظهم وتجاربهم، ومواقفهم وقصصهم، وشجاعتهم وزهدهم، وتنوَّر بسلوكهم، واهتدى لما اهتدوا إليه، واستعان على نفسه بما استعان به الصالحون على أنفسهم، وغلب شهوته بما غلب به السالكون شهوتهم، ما دامت الطريق واحدة، والهدف واحداً، بيننا وبين الأنبياء والأولياء ﷺ، فنعرف بذلك إيماناً جديداً طالما سعينا إليه، ونحن حتى الآن محرومون منه، وهو إيمان العارفين من عباد الله، فندرك حقيقة الإيمان،... كل ذلك بالتخفيف من كلامنا قليلاً، وحسن الاستفادة.

جاء في كتاب الكافي، وفي الترغيب والترهيب، وفي بحار الأنوار، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه»[١].

فالمؤمن هو الذي يخزن لسانه إلا من خير يجده موضعاً مناسباً ليضع كلامه فيه، حتى أن المؤمن عُرِّف في بعض الروايات بأنَّه الصموت الذي يحبس لسانه، وفي روايات أخرى «إنَّما شيعتنا الخرس»[٢]، في إشارة واضحة إلى ندرة كلامهم حتى كانوا أشبه بالخرس. حتى أن أمير المؤمنين عليه السلام ذكر في نهج البلاغة من جملة صفات المؤمن أنه «كثير صمته مشغول وقته...»[٣].

ولا تظنن أن في إكثار الكلام خيراً، بل إن آفة الكلام الإطالة،

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٩٨، باب ٧٨، وميزان الحكمة: ح١٧٩٢٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص١١٣، باب الصمت، ح٢.
(٣) نهج البلاغة: الحكمة: ٣٣٣، وميزان الحكمة: ح١٠٥٠٨.

حتى ولو كان كلامك جميلاً مستحسناً، ولكنَّ كثرته تؤدِّي إلى الزلل، وتورث الملل، فيخطىء الحكيم، ويملُّ الحليم، وتبدو مساوئ الأحمق.

قلّة الكلام، خير كُلُّه:

فعندما تعمل للتخفيف من كلامك، تؤجر على مخالفة الهوى، وتؤجر على اتباع السنَّة، وتُؤجر على مراقبتك ومحاسبتك لنفسك، وتؤجر في جهادك الأكبر... فلا غرابة عندها أن تكون في عبادة، بل تتقلب من عبادة إلى أخرى، ولا غرابة أن نستمع إلى رسول الله ﷺ في مكارم الأخلاق، وهو يصف أربعة أمور لا يصيبهنَّ إلاَّ مؤمن، وذكر من بينها: «الصمت، وهو أول العبادة...»[1] كما ورد في الروايات.

الصمت سيرة الصالحين:

وحرصاً على هذه التوصيات المتقدمة في الروايات المباركة، كان الصالحون من عباد الله، السالكون إلى سبيله سبحانه وتعالى، كانوا يشدّدون على أنفسهم كثيراً في حرصهم على السكوت، والتزام السكينة والوقار، وكانوا يدرّبون أنفسهم على ذلك ويعتبرونه من العبادات، وقد تنقضي سنوات طويلة، هي أطول ممَّا يقضيه أحدنا في الجامعة، يتعلمون ويتدرّبون على سُبُل كبح جماح النفس، ومكافحة الهوى، وحبس اللسان، وقلَّة الكلام، فإن نجحوا، كانوا أهلاً للسلوك إلى الله سبحانه ويتابعون الطريق، وإن فشلوا في ذلك

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠٥٠٥، وبحار الأنوار: ج٧٤، ص٢٦، باب ٢.

علموا أنهم غير مؤهّلين ليكونوا في هذه الدرجات العلية، والمقامات السنّية.

هذه سيرة الصالحين، منذ آلاف السنين، منذ زمن يوسف ويحيى وموسى وهارون ويونس وإبراهيم وهود وصالح وموسى ولقمان، على نبيّنا وآله وعليهم السلام أجمعين.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تحف العقول، عن هذا التاريخ النورانيّ المبارك، الضارب في أعماق التاريخ، ما نصّه: «إن من كان قبلكم، كانوا يتعلّمون الصمت وأنتم تتعلمون الكلام، كان أحدهم، إذا أراد التعبُّد يتعلم الصمت قبل ذلك بعشر سنين، فإن كان يُحسنه، ويصرُّ عليه، تعبَّد، وإلا قال: «ما أنا لِمَا أروم بأهل»[١] أي ليس باستطاعتي أن أصل لهدفي، ولست أهلاً لذلك.

فأين نحن من هذه العبادة، التي لا تكلّف جهداً ولا وقتاً ولا نصَباً، وهل جرَّبنا أنفسنا كما جرَّب الذين من قبلنا، عسى أن نصل لما وصلوا إليه؟ وهلاّ تعودنا الصمت وأفسحنا المجال للتفكر، وتلقِّي الحكمة، والإنصات، فنكسب محبة الله سبحانه، بالتفكر والتعظيم في خلق الله سبحانه وآياته... وهلاّ نستدل على طريق الخير بالصمت، وقد ورد عن الرضا عليه السلام: «إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنَّ الصمت يكسب المحبَّة، إنَّه دليل على كل خير»[٢].

ويبقى أمامنا، وقبل أن نختم هذا الموضوع، أن نذكر الرواية

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠٥٠٤، نقلاً عن تحف العقول: ص٣٠٧.
(٢) الكافي: ج٢، ص١١٣، ح١، وميزان الحكمة: ح١٠٥١٠.

الرائعة التي تشير، إلى مقام متقدم، من مقامات السالكين إلى الله، والذي يسعى إليه الصادقون بكل مثابرة وجهد، فيصبح الواحد منهم مناراً للآخرين، ومنارةً يستضاء بها، ومثالاً يُقتدى ويحتذى.

فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً، فادنوا منه، فإنَّه يلقّى الحكمة»[١].

فأين نحن من الصمت، وأين نحن من هؤلاء؟!...

نسألك اللهم، صلِّ على محمد وآل محمد «... وأيّدنا بتوفيقك، وسدّدنا بتسديدك، وأغْمِ أبصار قلوبنا عمّا خالف محبّتك، ولا تجعل لشيء من جوارحنا نفوذاً في معصيتك، اللهم فصلِّ على محمَّد وآله واجعل همسات قلوبنا، وحركات أعضائنا، ولمحات أعيننا، ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك، حتى لا تفوتنا حسنة نستحق بها جزاءك، ولا تبقى لنا سيئة نستوجب بها عقابك»[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٥٤، باب ٤، وميزان الحكمة: ح١٠٥٢٧.
(٢) الصحيفة السجّادية: ص ٥٨ من دعائه عليه السلام في الاشتياق إلى طلب المغفرة، الدعاء ٩.

وجوب الشكر لله سبحانه

الحمد لله رب العالمين الذي لا تنقص خزائنه ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً، فإنَّ نِعمه سبحانه علينا كثيرة إلى حدٍّ أن الواحد منَّا لو حاول إحصاءً للنعم المختلفة، لعجز عن ذلك بلا ريب: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

نِعَمُ الله مستمرة ومتواترة:

فنعم الله عزَّ وجلَّ على كل واحد منَّا، هي سلسلة بدأت قبل أن نولد، واستمرت مرافقة معنا، بلا توقف، حتى في أوقات غفلتنا وانصرافنا، بل وحتى استمرارنا في المعاصي والذنوب لم يمنع من تواتر وتتابع النعم المختلفة علينا، فسبحانك ما أحلمك وأكرمك.

لقد وهبنا الله نعمة الحياة والوجود والاستمرار، والتوحيد والإيمان والالتزام، والنُّبوَّة والهداية والعقل، والأهل والأحباب، والأخوة والأصحاب، والرزق الكثير، والعطاء الوفير، والصحة والعافية، والعلَّة والقوَّة، والنظر والسمع، والأعضاء والجوارح، والتعبير والحنان والعاطفة، والسلامة والعبادة، والسكينة والسجود،

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

والتوفيق والتسديد، والإنقاذ من الأخطار والأهوال، والفرج بعد الشدة، واليسر بعد العُسر، والعلم بعد الجهل، ونعمة التوبة بعد المعصية، والهداية بعد الضلالة، والشفاء بعد المرض، والأمن بعد الخوف، فليعترف كلّ واحد منَّا بهذه الأمور، وليناجِ ربّه بلسان صدق، ولنردد: إلهي «. . . أنا الصغير الذي ربّيته، وأنا الجاهل الذي علَّمته، وأنا الضالّ الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوَّيته، والذليل الذي أعززته، والسقيم الذي شفيته، والسائل الذي أعطيته، والمذنب الذي سترته، والخاطىء الذي أقلته. . . وأنا القليل الذي كثَّرته، والمستضعف الذي نصرته. . .»[١].

هل خطر على بالنا مرة أن نفكّر في نِعَم الله سبحانه علينا، هذه النِعم التي تستحق الشكر والامتنان، حتى ولو لم نكن مأمورين بذلك؟. . .

وهل خطر على بالنا يوماً أن نجلس متأملين متفكّرين في نعمة الله سبحانه علينا، أنْ هدانا للإيمان، وللتديُّن والالتزام، وشرَّفنا بدين الإسلام، فأخرجنا بذلك من حيِّز الحيوان إلى رُتبة الإنسان؟ هل فكَّرنا في كل ذلك، بالإضافة إلى النِعم الحسِّية والمادية والمتواترة علينا من كل حدبٍ وصوب، وفي كل لحظة وآن، حتى أن لله سبحانه في كل نفسٍ نتنفَّس، علينا نعمة وفضلاً، ولولا ذلك لا نبقى على قيد الحياة.

---

(١) من دعاء أبي حمزة الثمالي. انظر مصباح الكفعمي: ص٥٩٣.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة، قوله: «في كل نفس من أنفاسكم شكرٌ لازم لله، بل ألفٌ وأكثر»[١].

فإذا كان هذا المقدار المحدود نسبياً والذي يعدّ في طرف القلَّة، يحتاج إلى هذا الشكر اللازم الواجب المضاعف، كما يقول الإمام عليه السلام فكيف بنا إذا أردنا أن نشكر الله سبحانه وأن نقوم بواجبنا تجاه نعمه الدائمة المستمرة!.

الشكر فِعْلُ العقلاء:

إنَّ الرجل العاقل الذي أوتي الحكمة، يدرك وجوب شكر المنعم، ويعلم أن ذلك حقٌّ يجب أن يؤدَّى، ولا يجوز الاستخفاف فيه، أو التخلُّف عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[٢].

والرجل العاقل المحِبّ لله سبحانه، والمحبَّب عند الله جلَّ وعلا هو الذي لا يغفل عن الذّكر أو الشكر، في السرَّاء أو الضرَّاء، في الشدّة أو الرخاء... ونرى أنَّ الله سبحانه يهدي الشاكرين بسبب شكرهم، ويمدحهم لذلك، وينصُّ عليهم في كتابه المجيد مخلِّداً، ومذكراً الآخرين بهم، وواعظاً غيرهم، يقول سبحانه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

هنيئاً لمن يصل إلى هذا المستوى من خلال شكره لنعم الله سبحانه...

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٥٨١. نقلاً عن مصباح الشريعة: ص٢٤، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٥٢، باب ٦١.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢١.

لماذا الغفلة عن الشُّكر؟

والظاهرة الخطرة في المجتمعات الإنسانية، ومن ضمنها مجتمعنا الذي نعيش فيه، أن الغفلة تسيطر على كثير من الناس، بل على أكثرهم، حيث إنهم يغفلون عن نِعَم كثيرة ترافقهم، وتتجدّد في كل يوم بين أيديهم، وتحت أعينهم، بل لا يستطيعون الاستمرار لولاها، وليس لهم كرامة بل ولا وجود، بل هم لا يفكرون ولا يعقلون من دونها، وهم كالجمادات، بل أقل لولاها، أي لولا النعم المتواترة والمتوافرة، لهم وعليهم، من خالقهم سبحانه وتعالى، وهم مع كل ذلك هم غافلون!!!

قال الله سبحانه عن هذه الظاهرة المعبِّرة المنتشرة في الحياة الإنسانية، وفي نفوس البشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[١].

وبمقابل هذه الظاهرة الشائعة وهي غفلة الناس عن الشكر، جعل الله سبحانه سبباً آخر، لزيادة النعم، وهو الشكر، فرغَّب فيه حثّاً للناس على التعبُّد به، فيشكرون من ينبغي الشكر له، وفي نفس الوقت يستزيدون من النعم والرزق الحسن. فقال الله سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾[٢].

الشكر الحقيقي طاعة وعمل:

وليس المقصود بالشكر هو أن ننطق بالحمد والثناء على الله

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

سبحانه وتعالى، فنعبّر عن امتناننا بألسنتنا... بل يكون الشكر الحقيقيُّ الكامل بقلوبنا وأعمالنا وجوارحنا وطاعتنا...

فالشاكر الحقيقي هو الذي عرف النعمة أو عرف صاحبها سبحانه وتعالى، ورأى وجوب شكره، وذكر فضله، ولزوم امتنانه، وهذا لا يكون إلاَّ بإرضائه، والتقرُّب منه سبحانه وتعالى، والتزلّف بين يديه، والثقة الكاملة التامة بمحل قدسه، واللوذ بجنابه، والاستعانة به، وبثّ الشكوى لديه...

مظاهر الشكر ونتائجه:

والشكر الحقيقيُّ إنما يكون بالرهبة والرغبة والتوجه والصدق والإخلاص في العمل، والرجاء والخوف، وهذا كلّه لا يكون إلا باجتناب المعصية، وما يُغضب الربّ سبحانه وتعالى، فإذا عُرِفت النِعم، وأُدركت بالقلب، فعندها يكون الشّكر شكراً حقيقياً خالصاً لا تشوبه شائبة، ولا لزوم عندها للشكر باللسان إلا من باب إظهار النِعم والتحدّث بها، أو ابتغاء الكمال في العبادة.

جاء عن الصادق عليه السلام قوله: «مَنْ أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه، فقد أدَّى شكرها»[1].

وعنه عليه السلام: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة، فعرف أنها من عند الله، إلَّا غفر الله له قبل أن يحمده»[2].

وبمجرد هذا الشعور، وذلك الإدراك، يكون الشكر كاملاً

(١) ميزان الحكمة: ح٩٦١٣، والكافي: ج٢، ص٩٦، ح١٥.
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٢٧، ج٨، وميزان الحكمة: ح٩٦١٤.

وتاماً، وهذا بحدٍّ ذاته نعمة إلهية تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله جلَّ وعلا.

بل هذه الحالة تستوجب نعماً أخرى، وتستوجب من طرفنا أيضاً معرفة قلبية بالمقابل لتأدية الشكر، وهذا يستوجب من فضل الله أيضاَ وأيضاً مغفرة ورحمة... بل وزيادة في النعمة،... وهكذا وبلا انقطاع: نِعَمٌ تتوافر، ورزق يتكاثر، وفضل يدوم، وعافية وصحة وتسديد وتجاوز وتوفيق، كما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد نعمة، فشكرها بقلبه، إلاَّ استوجب المزيد فيها، قبل أن يُظهر شكرها على لسانه»[١].

الصبر درجة من درجات الشُّكر:

وفي بعض الأحيان يكون تقصيرنا في الشكر وذكر النِّعَم، وبالاً علينا، حيث تنقطع هذه المواهب التي لم نكن نستحقها أصلاً، ولكنَّ رحمة الله كانت سبباً لخروجها إلينا، فنقصر في الشكر، ونهمل القيام بالواجب، تجاه المنعم سبحانه وتعالى، وكأننا غير شاكرين لنعمائه عزَّ وجلَّ، بينما الصبر على بعض المصائب، وهو نوع من الشكر العملي، والرضا، واليقين بقضاء الله وقدره، يؤدِّي إلى رضا الله سبحانه، حيث ليس بعد هذه الغاية غاية، ولا بعد هذا الفضل فضل.

يقول الصادق عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ، أنعم على قوم بالمواهب، فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب، فصبروا فصارت عليهم نعمة»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٥٩٢، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٥٣، باب ٦١

(٢) ميزان الحكمة: ح٩٥٩٩، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٤١، باب ٦١ نقلاً عن الكافي: ج٢، ص٩٢، باب الصبر.

وهكذا يُمتحن الإنسان بالعطايا والجوائز التي يكون مظهرها حسناً، ولعلَّ عاقبتها سيِّئة، كما يُمتحن أيضاً بالمصائب والابتلاءات المختلفة في جسده وماله، التي يكون مظهرها قبيحاً، ولعلَّ عاقبتها إلى خير، وثواب، وتزكية للنفس، وعلو في المقام عند رب العالمين، وفي الآخرة.

وهذا الامتحان جارٍ على كل الناس، وإن كان على المؤمن أشد، وذلك بلحاظ ما تميَّز به عن البشر من علم وإدراك وإيمان، وعلوم غيبية، ويقين، وثقة بالله، ورجاء صادق... فالمطلوب من المؤمن أن يكون متميّزاً عن الكافر أو المنافق، في كيفية التعبير عن الشكر، من خلال عمله وصدقه في المواطن، والمعاملات والتجارات، وفي علاقته مع الأحباب والأصدقاء والأخوة، وفي حسن خلقه وعطائه وبذله وتضحيته وصبره وصفاء نيّته...

يقول علي عليه السلام: «شكر المؤمن يظهر في عمله، وشكر المنافق لا يتجاوز لسانه»[(١)].

فلا أدري كيف يمكن للمؤمن أن يعبر عن شكر صادق، وأدب جمّ، وحمد صحيح، وتوجُّهٍ إلى الله سبحانه في ذلك وهو محاربٌ له بعمله، حائدٌ عن طريق التقوى، مبارز في عمله، غير خائف من عواقب ما اقترف... فكيف يمكن إطلاق اسم المؤمن على من بارز الله سبحانه في عمله، وهذا عليٌّ عليه السلام يقول في مشكاة الأنوار: «شكرُ كلِّ نعمة، الورع عمَّا حرَّم الله»[(٢)].

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٦٠٥، وغرر الحكم: ح٦١٦٤١ و١٠٥٠١.
(٢) ميزان الحكمة: ح٩٦٠٨. نقلاً عن مشكاة الأنوار: ص٣٥.

القناعة شكر:

ومن صفات المؤمن القناعة، التي هي بحدِّ ذاتها تعبير عملي ونفسي، عن شكر المنعم سبحانه وتعالى، والرِّضا بما قسَّم من أرزاق، وكتب من آجال... فالقناعة هي أن ترضى بما وهبك الله سبحانه، فلا تكون ساخطاً، أو مُتّهماً إيَّاه جلَّ وعلا في القضاء، أو عندك شك فيما وهبك من صحَّة أو مال أو ولد، وفيما منع عنك من هذه الأمور وغيرها.

بل من تمام القناعة وكمالها ليس فقط مجرد الرضا بما وهب، بل أن تشعر أن هذا كثير، وأنه عطاء وفير، لا تستحقه بعملك، وفيه موهبة من الله سبحانه... فإن نفس شعورِك باستكثار النعم مهما كانت قليلة، هو بحدِّ ذاته تعبير عن الشكر والامتنان، كما قال الباقر عليه السلام: «استكثر لنفسك من الله قليل الرزق، تخلصّاً إلى الشكر»[1].

مساعدة الآخرين شكر:

والمؤمن أيضاً، يلتفت إلى المحتاجين، وإلى الفقراء المستضعفين، فيهب، ويعطي، ويتصدَّق، ويتحسَّس، ويتألَّم، ويخفّف من آلامهم، ويخدِمهم، ويساعدهم بالمال والطعام والدواء...، وهذا أيضاً تعبير عن الشكر من خلال التحسّس، بفيض النعم وكثرتها عليه، وعدم حبسها ومنعها عن مستحقيها، أو التعلُّق بها واحتكارها... وهذا شكر عملي أيضاً. بل حتى لو لم يوفق المرء إلى العطاء، فإن نظرة العطف والتحسُّس فقط، مجرد

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٦١٠، وبحار الأنوار: ج٧٥، ص١٦٢، باب ٢٢.

النظرة إلى من كان أقلَّ منك في المال أو الرزق، هو باب من أبواب الشكر، لأن في ذلك محاكمة وجدانية عاطفية، لجانب روحه وقلبه. فلعلَّ نظرة عطف واحدة تساوي كثيراً من المال، ووفيراً من العطاء، وأكثر.

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام للحارث الهمداني وهو يوصيه قائلاً: «وأكْثر أن تنظر إلى من فُضِّلت عليه، فإن ذلك من أبواب الشكر»(١).

فلنسع جميعاً لتذكر النعم، ومحاولة الإحاطة بها، وإن كان ذلك مستحيلاً، إلا أن في المحاولة نفسها تربية جادّة لإحصاء فضل الله ونعمه علينا واستقصائها بعد طول غفلة من جانبنا. ولنحصِّن أنفسنا ممَّن قال الله سبحانه فيهم: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٢) وذلك لأداء هذا الواجب الإلهي، ولتأمين دوام استمراره علينا، ولا ننسى أنَّه بالشكر تدوم النِّعَم.

اللَّهمَّ «... وهذا مقام من اعترف بسُبوغ النعماء وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع، وأنت الرؤوف الرحيم البرّ الكريم الذي لا يُخيِّب قاصديه، ولا يطرُد عن فنائه آمليه...»(٣).

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٦١١ نقلاً عن نهج البلاغة: الكتاب ٦٩.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦١.

(٣) الصحيفة السَّجادية: من مناجاة الشاكرين، وانظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٦، باب ٣٢.

منتهى درجات الشاكرين

الشكر يحتاج الى شكر:

لا شك أنك فكَّرت يوماً أن تشكر الله سبحانه وتعالى، على نِعَمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، فشكرته وحمدته وأثنيت عليه جلَّ وعلا، في الصلاة أو بعدها، أو بعد دعاء معين، أو مطلقاً... ثم انتقلت إلى عملٍ آخر، وأنت مطمئن أن واجب الشكر للخالق جلَّ وعلا قد سقط عنك، ولم تفكّر يوماً أن شُكرك هذا يحتاج إلى شكر.

نعم، لا تتعجَّب من هذا الكلام، فهل فكّرت يوماً أنَّ شكرك لنِعم الله الكثيرة يحتاج بعد أدائه إلى شكرٍ ثانٍ، أي إلى شكر آخر؟

طبعاً ستسأل: ما دام الشكر على النعمة قد حصل... فما معنى الشكر الآخر؟

والجواب يا أخي الكريم واضح لو تأملنا قليلاً في توفيقات الله سبحانه لنا، وتسديده إيَّانا، حيث وفقنا إلى الشكر، فإن نفس التوفيق، لأداء هذه العبادة، يحتاج إلى شكر الله سبحانه.

وبكلام آخر أكثر تبسيطاً: إنَّ شكرك الأول، كان من أجل نعمة محدّدة ومعيّنة، وقد قمت به، وهو عبادة حقيقية كاملة. أمَّا شكرك

الثاني، فهو لأجل التوفيق للشكر الأول، ومن أجل التوفيق لهذه العبادة.

أخالُك الآن تتأمل وتسأل: إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن الشكر الثاني، هو عبادة أيضاً، وبالتالي فهو محتاج لشكر ثالث، وهكذا إلى ما لا نهاية.

والحقُّ أنَّ كلامك في محله تماماً، وهو المطلوب، فالله سبحانه يريد منَّا أن نكون دائماً في حالة شكر له بقدر ما نستطيع. ويريد أيضاً، أن نشعر بالتقصير تجاهه، فلا نفكر أنَّنا قمنا بالعبادة كاملة ولا يُطلب منَّا شيء بعد. كما يريد أيضاً سبحانه أن يشعرنا، أنَّ نعمه تتواتر علينا، وتتقاطر دون توقّف، وهكذا ينبغي أن يكون الشكر مستمراً ودون توقّف، طبعاً بقدر الاستطاعة.

لا حدود للشّكر:

فليس من أدب الإنسان الذي يؤدي حقَّ العبودية لله سبحانه وتعالى، ليس من الأدب أن يشعر، أنه قد حمد الله وشكره بما فيه الكفاية، وليس من الأدب أيضاً أن يعتقد أنَّ للشكر حدوداً يقف عندها.

كما أنَّه ليس من الأدب أن يظنَّ أنَّه غير محتاج لتواصل النِّعَم عليه، بل هو بحاجة إلى الله سبحانه وتعالى، وهو فقير إليه سبحانه وتعالى، ومرهون له في سائر أوقاته وساعاته، وأعماله ورزقه، حتى أنَّك محتاج إلى الله سبحانه الآن في هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذا الكلام... فلولا فضل الله عليك في كل نفسٍ تتنفَّس، ما استطعت أن تبقى على قيد الحياة، ولم تُسنح لك الفرصة لتقرأ وتتأمَّل، وتُفكّر

وتعقل... بل وأنت أعجز من أن تستمر الآن للحظات قادمة حتى ينتهي هذا الكلام، إلا أن يهبك الله سبحانه، الحياة والقوَّة والعافية والصحَّة لتستمر للدقائق الآتية.

أفليس كلُّ هذا يحتاج مني ومنك، إلى شكر، كما أن شكرنا يحتاج إلى الشكر؟

فالحمد لله والشكر لله على نِعَمه الدائمة المستمرة، والشكر له سبحانه أنْ وفَّقنا لشكره قبل قليل.

أمَّا مُلخّص كل هذه المعاني التي مرَّت، فقد جعله الإمام زين العابدين عليه السلام في سطرين اثنين، موجزاً وملخِّصاً ومعبِّراً عنه بأصدق تعبير وأعمقه، حيث يقول عليه السلام: «... فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إيَّاك يفتقر إلى شكر، فكُلَّما قلتُ لك الحمد، وجب عليَّ لذلك أن أقول لك الحمد...»[١].

لا يتحقق منتهى الشكر إلَّا بالعجز عن الشكر:

وهذا في الحقيقة، هو الأسلوب التربوي والسلوكي والعملي لأنبياء الله عليهم السلام وأتباع الأنبياء، من الأولياء والأوصياء، على نبيّنا وآله وعليهم أفضل الصلوات والتسليمات. فالتاريخ القديم يحدّثنا عن قصص وحوادث، كان الكُمَّل من عباد الله يُظهرون فيها عجزهم عن أداء الشكر الحقيقي والكامل لله سبحانه وتعالى. وهو عجز حقيقي واقعي، إضافة لكونه موقفاً أدبياً سلوكياً مع ربّهم المتعالي جلَّ وعلا.

---

(١) الصحيفة السَّجادية: مناجاة الشاكرين، وانظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٦، باب ٣٢.

ففي رواية مباركة عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ الله سبحانه أوحى لموسى عليه السلام حيث قال: يا موسى اشكرني حق شكري.

فتساءل موسى عليه السلام أنْ يا ربِّي كيف أشكركَ حقَّ شكرك، وليس من شكر أشكر به إلاَّ وأنت أنعمت به عليَّ؟! فقال الله تبارك وتعالى: «يا موسى شكرتني حقَّ شكري، حين علمت أنَّ ذلك مني»[1]. فأظهر موسى عليه السلام عجزه عن الشكر الحقيقي لأنَّ كل شكر هو هبة وتفضُّل منه تعالى.

وهذا الموقف من نبي الله موسى عليه السلام هو الذي يجب أن يسعى إليه المؤمن، بقصد بلوغه، وإن كان بلوغ هذه المقامات عزيزاً ونادراً، إلاَّ أنَّ نفس السعي بإخلاص وتجرُّد، والإحساس بأنَّ كلَّ النِّعَم من الله، والقيام بشكرها من الله أيضاً، إنَّ نفس هذه الحالة درجة عالية من درجات الشاكرين.

يقول الصادق عليه السلام مبيِّناً هذه الدرجة: «تمام الشكر، اعتراف لسان السرّ، خاضعاً لله تعالى، بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأنَّ التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها...»[2].

لذا، على كل إنسان أن يسعى لشكر الله سبحانه من خلال طاعته، وذكر نِعَمه، وتوزيعها... كما عليه أن يكرِّر الشكر دائماً وبلا انقطاع... وفوق كل ذلك عليه أن يشعر بالعجز عن القيام بواجبه كاملاً: لأن منتهى الشكر إنَّما يكون بالعجز عن أداء الشكر.

---

(١) ميزان الحكمة: ح٢ ـ ٩٦، بتصرف، وبحار الأنوار: ج١٣، ص٣٥١، باب ١١. نقلاً عن قصص الأنبياء.

(٢) ميزان الحكمة: ح٩٦٠٤، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٥٢، باب ٦١.

وهذه الحالة هي حالة قلبية شعورية قبل كل شيء، وإنَّما إظهارها باللِّسان هو من كمالها وآدابها، ليس إلاَّ. وعلى هذا الأساس كانت الروايات العديدة والكثيرة التي استوجبت المزيد من النعم، بمجرد الشعور القلبي بها، وإن لم يظهر ذلك على اللِّسان بعد، كما يقول علي عليه السلام: «من شَكَر النِّعَم بجَنانه، استحق المزيد قبل أن يظهر على لسانه»(١).

سجدة الشكر:

ولا يفوتنا هنا أن نتذكر «سجدة الشكر»، هذه السجدة المباركة التي تعوَّدنا أن نقوم بها عادةً بعد الصلاة، كتعبير عن الشكر والامتنان، إلاَّ أنَّ هذه السجدة ينبغي أن تكون ممارسة دائمة لنا في كل يوم مرَّات عديدة، وأن لا نحدِّدها بوقت معيَّن، بل هي لكل نعمة حصلت، أو لكل نقمة دُفعت،... فمَنْ منَّا يخلو، في ساعةٍ من ساعات نهاره أو ليله، من نعمة حادثة، أو خطرٍ مدفوع؟!!

تكرار سجدة الشكر:

فسجدة الشكر ينبغي أن نتعوَّد عليها لتكون لكافة أمورنا تعبيراً عن الشكر والحمد، وذلك بعد حدوث رزق، أو علم أو عبادة أو خدمة أو خير أو صدقة أو حملِ سلاحٍ في سبيل الله، أو نصرة مستضعف، أو عون مُحتاج، أو جهاد نفس... وأن نتعوَّد على سجدة الشكر أيضاً، بعد النجاة من شرٍّ، أو خطر، أو حاكم جائر، أو سلطان ظالم، أو حادث مهلك، أو خطرٍ محدق... وهذه عادة الأنبياء والأولياء عليهم السلام، فقد ذكر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان على ظهر

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٥٩٧، وغرر الحكم: ح٦١٩٣.

ناقة في سفر له، وإذا به ينزل عنها ويسجد لربّه سبحانه خمس سجدات، ثم يتابع مسيره، ممَّا أثار حشريَّة الصحابة الذين تعجَّبوا من فعلته هذه، وظنُّوا أنَّ عبادة جديدة قد شُرِّعت، فسألوه مستفسرين عن ذلك، فأجابهم ﷺ: «نعم استقبلني جبرائيل عليه السلام، فبشَّرني ببشارات من الله عزَّ وجلَّ، فسجدتُ لله شكراً لكل بشرى، سجدة»[١]. فكان سجوده ﷺ مكرراً على عدد النِّعَم والبشارات.

الشكر عند تذكّر النِّعم:

بل يُستحب السجود شكراً لا فقط عند حدوث الحدث، أو طروء النعمة بل حتى عند ذكرها أو التفطن إليها، تأكيداً على فضل الله جلَّ وعلا، وإحياءً لصدق العبودية والتذلل في النفس، وتحديثها بِنِعم الربّ عزَّ وجلَّ. فقد كان هشام بن أحمر يسير مع أبي الحسن عليه السلام في ضواحي المدينة المنوَّرة على مشرِّفيها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات، فإذا بالإمام عليه السلام ينزل عن دابته، ويخرُّ لله ساجداً، ويطيلُ في سجوده، ثم يرفع رأسه، ويركبُ دابته ويمضي. فقال هشام: جعلتُ فداك، قد أطلت السجود؟ فقال عليه السلام: «إنِّي ذكرت نعمةً أنعم الله بها عليَّ، فأحببت أن أشكر ربِّي»[٢].

سجدة الشكر لا تترك:

ولعلَّ المرء في بعض الأحيان يُحرج من النزول للسجود لضيق الوقت، أو خوفاً من الرّياء، أو لوجود موانع أخرى، فحتى لا يحرم من ثواب هذه السجدة المباركة يستطيع أن يضع خدَّه مثلاً على أي

---

(١) ميزان الحكمة: ح٩٦٢٢، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٥، باب ٦١.
(٢) ميزان الحكمة: ح٩٦٢٣، والكافي: ج٢، ص٩٨، ح٢٦.

شـيء أمامـه أو عـلـى كـفّـه إذا أراد، حـيـث روي عـن الإمـام الصادق ﷺ: «إذا ذكر أحدُكم نعمة الله عزَّ وجلَّ، فليضع خدَّه على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل فليضع خدَّه على التراب، وإن لم يكن يَقْدر على النزول للشهرة، فليضع خدَّه على قربوسه[1] وإن لم يقدر فليضع خدَّه على كفّه، ثم ليحمد الله على ما أنعم عليه»[2].

الغفلة لا تمنع تواتر النِّعم:

وهكذا نرى أنَّ المؤمن لا يخلو من حالة شكرٍ في أيِّ حال من أحواله. فالنعم متواترة وكثيرة وإن كانت في جسد الإنسان إلى سائر أعضائه، إلى تنفسه، إلى دقات قلبه، إلى الاعتناء به عند النوم... فحتى لو غفل عن نفسه فالله سبحانه لا يغفل عنه، وعدد النِّعَم في الدقيقة الواحدة مذهل، بل معجزٌ للمتتبِّع. والتفضلات الإلهية سريعة ومتتابعة ومترادفة، حتى أن حمدها لا يُخرج عن حد التقصير.

فليس لنا يا ربِّي إلاَّ أن نخاطبك بلسانِ العاجزين... مع أنَّ نفس إذنك لنا بالخطاب، وفسح الأجل لذلك، هو نعمة تستحق الحمد والشكر.

«إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طَوْلِك، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلِك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدِك، وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك، وهذا مقام من

---

(١) المنطقة المنحنية من السَّرج.

(٢) ميزان الحكمة: ح٩٦٢٤، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٥، باب ٦١.

اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع . . . ».

«إلهي تصاغر عن تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك إياي ثنائي ونشري، . . . فآلاؤك جمة ضعف لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة، قصر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها . . . »[1].

(١) الصحيفة السَّجادية: مناجاة الشاكرين، وانظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٦، باب ٣٢.

شدة ابتلاء المؤمن

الأجر على قدر المشقة والبلاء:

الحمد لله رب العالمين، مؤنسي عند وحشتي، وصاحبي عند غربتي، وغياثي عند كُربتي، وملجئي عند اضطراري، الذي شاء أن يجعل الدنيا التي نعيش، دار بلاء وامتحانٍ واختبار، يُمحّص فيها المؤمنون، ويميَّزون عن غيرهم، ويختبر فيها المجاهدون الصابرون من المؤمنين، ليغربلوا عن غيرهم... لأن مقتضى العدالة الإلهية القدسية، أن لا يتساوى أجرُ الناس، إلا بقدر المشقَّة، ولا تتساوى درجات الجنَّة والرضوان إلا بقدر التضحيات والصبر، والتحمل والاحتساب، في جنب الساحة القدسية، لخالق السماوات والأرض تبارك وتعالى.

إنَّ علينا أن نعلم ونتيقَّن أنَّ البلاء سنَّة من سنن الله سبحانه في العباد، لا يخلو منها بشر على وجه الأرض. فقد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[1].

وبالبلاء الذي يُصيبنا يُعرف المؤمنون المحبُّون لله سبحانه، العاشقون، المشتاقون، أصحاب الإيمان الخالص من كل شائبة،

---

(١) سورة محمَّد ﷺ، الآية: ٣١.

الخالي من كل هدف رخيص، الذي لم يكن إلاَّ قربة لله سبحانه. وبالبلاء يظهر المنافقون ومن في قلوبهم مرض، ممَّن عشعش الصنم في قلوبهم، وإن أظهروا رياءً ما لا يبطنون، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(١).

شدّة ابتلاء المؤمن سُنَّة إلهية:

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل من سنّته شدَّة في ابتلاء المؤمنين، أكثر من غيرهم، وذلك إمَّا زيادة في ثوابهم، وإمَّا رفعة في درجاتهم، وإمَّا تكفيراً عن ذنوبهم، وإمَّا زيادة في تضرعهم، أو حبّاً في دعائهم ومناجاتهم وسماع نبرة أصواتهم... وفي كل ذلك فخر، وشرفٌ، وتفضّلٌ، وعناية خاصة من الله تعالى للمؤمنين، وإكراماً لهم.

لذا كان من أدب المؤمنين مع خالقهم جلَّ وعلا، أن لا يسألوه تخفيف البلاء، ولكن يسألونه سبحانه، القدرة على الصبر، والقوَّة على التحمُّل... فلا يسألونه حملاً خفيفاً بل ظهراً قوياً، متجلِّداً، راضياً بالبلاء، مبتغياً الأجر والثواب.

البلاء يشمل الأحبّاء:

وعندما نعلم هذا، ونعلم أن المؤمنين معرَّضون للبلاء أكثر من غيرهم لسبب من الأسباب المتقدمة، نسأل: هل أن هذه السنَّة جارية

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.

أيضاً على أحبَّاء الله المرضيين من الرُّسل والأنبياء؟ وهل يمكن له سبحانه أن يبتلي أحبَّاءه؟

ولعلَّك تفاجأ عندما تعلم أنَّ الله تعالى، يشمل بسنّته هذه كلَّ عباده، بمن فيهم الأنبياء والرُّسل، بل يختصُّ هؤلاء بأنواع خاصة من البلاء لا تكون لغيرهم، ولعلَّ ذلك أيضاً لنفس الأسباب المتقدمة، أو لأسباب أخرى نجهلها، كأن يُبعثوا مقاماً خاصاً لا يكون لسائر الناس، أو لأنهم قدوة للعالمين، أو لأنهم لا يصلون إلى تلك الدرجات العالية، من الشوق والأُنْس والسكينة، إلا بأنْ يمحَّصوا ويُمتحنوا، بأنواع الابتلاءات والمصائب.

بل لعلَّ شدَّة بلائهم عليهم السلام حتى لا يستوحش المؤمنون ويشعروا بالغربة في مواجهة المصاعب والآلام الدنيوية، فنشعر أنَّ قدوتنا وأسوتنا عليهم السلام قد واجهوا ما واجهنا وأكثر، وقد أصابهم ما أصابنا وأكثر، وتألموا كما تألّمنا وأكثر، وعُذِّبوا وشرِّدوا وحوربوا كما عُذبنا ونعذّب، وشرّدنا ونشرَّد، وحُوربنا ونُحَارَب، بل أكثر وأكثر.

بلاء الأنبياء:

فكم ترتاح يا أخي المؤمن، وتطمئن عندما تستمع إلى قصص الأنبياء عليهم السلام وكيف اتُّهِموا وكُذِّبوا، ولكنَّهم صبروا وانتصروا، فتستأنس وترضى، ولا تشعر بالوحدة والغربة، وتقتدي بهم عليهم السلام، وتجدُ في حياتهم وسلوكهم، مُخففاً لآلامك، ومُسكِّناً لنفسك، كما تطمئن للمصير والمستقبل، وتعلم أن المسيرة واحدة، والربّ واحد، وأن شدة البلاء، تكون أيضاً للأحباب والمقرَّبين، وللسادة المنتجبين، وفي مقدمهم، الأعظم ابتلاءً في تاريخ الإنسانية، سيِّدنا ونبيّنا محمَّد صلى الله عليه وآله الذي مُحص بالبلاء تمحيصاً، كما لم يكن لأحد

غيره من البشر، لا من قبل ولا من بعد، فكان الأكثر بلاءً، يقيناً، وكان الأكثر حبّاً لله سبحانه من كل الأولين والآخرين من العالمين.

فلا يَشُكَّنّ مؤمن صادق أنَّ مقامه المحمود ﷺ عند الله، هو الأعلى، وهذا لا يضر بنزول البلاء فيه على الرغم من منزلته وقربه، بل لا بُدَّ أن نزول البلاء عليه سيكون الأشد، كما نبأتنا بذلك السيرة والروايات. فقد روى حفيده الإمام الصادق عليه السلام الرواية المشهورة، حيث قال: «إنَّ أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل»[١].

إذاً فإنَّ نزول البلاء على المؤمن إنّما يكون بقدر إيمانه، فإن كان الإيمان عظيماً، كان البلاء مثله عظيماً، وإن كان الإيمان كبيراً، كان البلاء مثله كبيراً.

فيا أخي المؤمن، صاحب الإيمان الكبير، والثقة التامة بالله سبحانه، استعد لنزول البلاء فيك، . . . لا أقول إن الأمر محتمل، بل هو حتمي، لأن سنَّة الله سبحانه جارية، فلا شك أن الابتلاء سينزل بي وبك، على قدر إيماننا، وربما يكون في أجسادنا وأموالنا أو أولادنا أو أرزاقنا . . .

قال علي عليه السلام: «إنَّ البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض»[٢].

المهم أن لا نُبتلى في ديننا:

والمهم يا أخي المؤمن، أن لا يكون بلاؤنا ولا مصيبتنا، لا

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٨٩٨، والكافي: ج٢، ص٢٥٢، ح١.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٨٩٩، وبحار الأنوار: ج٦٤، ص٢٢٢، باب ١٢.

سمح الله في ديننا، وذلك هو الخسران المبين، إذ كلٌّ بلاء في شأن محدود من شؤون الدنيا، نصبر عليه، فيه أجرٌ وثواب وقوَّة في الإيمان، أمَّا مُصيبة الدين لا سمح الله فتلك خسارة لا تُعوَّض ولا تُجبر.

ابتلاءات مهولة لصيانة الدين:

ولنعلم أنَّ هذا الدين المبارك، ما وصل إلينا، إلاَّ بعد طول مجاهدة وصبر من المؤمنين، في سالف الأزمان، الذين واجهوا أنواعاً مهولة ومخيفة من الابتلاءات والمصائب، بسبب تديُّنهم، وعلى ذلك، أصرُّوا وتعلّقوا وأدّوا الأمانات إلى أهلها، ووصلت الأمانات إلينا، والتي يجب علينا أيضاً أن نؤدّيها إلى أهلها كما فعلوا.

فالتاريخ يُحدِّث عن أنواع من العذابات، التي تعرَّض لها أتباع الأنبياء، رضوان الله عليهم، من قبلنا، وإذا ما قورنت هذه الابتلاءات مع ما نواجه من مصاعب، لكانت النسبة بينهما خجولة جداً لا تُذكر. إذ ماذا تقول عندما تسمع أن مؤمنين، كانوا يُنشرون بمناشير الحديد كما ينشرُ الخشب، فيصبرون على إيمانهم، وأن بعضهم كان يمزَّق جسدهُ بالحديد، حتى يصل إلى عظمه وعَصبه، فيصبرون على دينهم.

وكان بعضهم، يقتل أو يحرق، أو تُقطع يده ورجله ويصلب حياً، كما يروي الإمام زين العابدين عن آبائه عليهم السلام.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «كان الرجل قبلَكم، يؤخذ فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على

رأسه، فيشقُ باثنين، ما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشّط بأمشاط الحديد، ممَّا دون لحمه من عظم أو عصب، ما يصدُّه ذلك عن دينه»[١].

أوَ نَسينا أصحاب الأخدود، الذين أُسروا، وجُعل لهم في الأرض أخدود من نار، ثم جُعِلوا فيها، حتى أنَّ امرأة منهم، رضوان الله عليها، أتت ومعها صبيٌّ، فهابت النار، فأنطق الله سبحانه صبيَّها منادياً: أُمّاه، اقتحمي، فاقتحمت النار، كلُّ هذا للمحافظة على الدين[٢].

أمْ نسينا إسماعيل رضوان الله عليه، الذي ذُكر في الآية المباركة (٥٤) من سورة مريم وهو غير إسماعيل بن إبراهيم حيث سلّط عليه قومه، فكشفوا وجهه وفرْوة رأسه[٣].

وسلام الله على الإمام الصادق، الذي يقول عندما يشرح حالة هؤلاء: «فاسألوا ربّكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم، تُدركوا سعيهم»[٤].

اللهم إنَّا نسألك درجاتهم فهي عالية عندك، ونسألك أن تصبِّرنا، على النوائب، حتى نصبر صبرهم، ونموت على ما ماتوا عليه، ونُبعث على ما يُبعثون عليه، ونسألك أن تُدْركنا سعيهم، وتحشرنا معهم، فإنَّهم الخُلَّص من عبادك، المتوفَوْن شوقاً إليك.

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٠٤، وعوالي اللآلي: ج١، ص٩٨، ح١٣ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٠٨. بتصرف، وبحار الأنوار: ج١٤، ص٤٤٠، باب ٢٨.

(٣) ميزان الحكمة: ح١٩٠٦، وبحار الأنوار: ج١٣، ص٣٨٨، باب ١ نقلاً عن علل الشرائع: ج١، ص٧٧، باب ٦٧، ح٢.

(٤) ميزان الحكمة: ح١٩٠٧، والكافي: ج٨، ص٢٤٧، ح٣٤٧.

البلاء يكبر مع الإيمان:

أيُّها الأخ العزيز يتبين لنا ممَّا تقدَّم، أن نزول البلاء بنا، لا ريب فيه، وأنَّه يكبر مع كبر إيماننا. ولا يكون ذلك إلاَّ لترويضنا على التحمل، وتعليمنا على الصبر، ولتصحيح إيماننا الذي يمكن أن ينحرف بسبب دوام الرخاء، أو كثرة الرفاهية، أو حبِّ الدعة والراحة، فيأتي البلاء مصحّحاً للسيرة، ومُقوّياً للمسيرة.

يقول الصادق عليه السلام: «البلاء زين للمؤمن، وكرامة لمن عقل، لأن في مباشرته، والصبر عليه، والثبات عنده، تصحيح نسبة الإيمان»[١].

حتى أن بعض الروايات المباركة، تشير بصريح العبارة إلى أن البلايا محشوة، بالكرامات الأبدية، والمِحن تورِّث رضا الله سبحانه وقربه[٢]، وإن لم يكن هذا عاجلاً. فهل أفضل من هذا الإرث، وهذه الكرامة؟

بل إنَّ روايات أخرى، تشير أيضاً، أن مدح الله سبحانه لبشر، لا يكون إلاَّ بعد البلاء، وهذا مظهرٌ واضح من مظاهر الامتحان، الذي لا يُمدح صاحبه، إلاَّ بعد إجرائه وصدور نتائجه... فليس من عبد من عباد الله أو بشر، ذكر مدحه في القرآن الكريم، أو الروايات والأحاديث الشريفة، إلا كان ذلك بعد جملة ابتلاءات، استحق على أثرها المدح الإلهي، والكرامة الربَّانيَّة، والمنحة القدسيَّة.

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٢٨، وبحار الأنوار: ج٦٤، ص٢٣١، باب ١٢.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٣٠، بتصرف.

البلاء كرامة:

فالرضا الربَّاني هذا، الذي ما بعده درجة ولا كرامة، تكون بدايته بلاءات، ونهايته كرامات، هي منتهى درجات المسافرين إلى الله، المهاجرين إلى رحمته، السالكين سبيله، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما أثنى الله تعالى على عبدٍ من عباده، من لدن آدم إلى محمَّد صلى الله عليه وآله إلاَّ بعد ابتلائه، ووفاء حقِّ العبودية فيه، فكرامات الله في الحقيقة نهايات، بداياتها البلاء»[(١)].

فلنصبر على بلائنا، فبالصبر يكون الرِّضا، ويكون الأجر، ويكون الفوز، ولنتذكر دائماً، أنَّ البلاء الذي يصيبُنا، وإن كان كثيراً، لكنَّه بمشيئة الله وقدرته، بل اختصّنا به دون سوانا، ولنتذكر أيضاً، أنَّ هذه سنّته سبحانه، مع أنبيائه ورسله، والخلَّص من عباده. ولنستعن به سبحانه، على كلِّ أمورنا، حتى لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً.

«اللهم إنَّك كلَّفتني من نفسي ما أنت أملك به منِّي، وقدرتك عليه وعليَّ أغلب من قدرتي، فأعطني من نفسي ما يُرضيك عني، وخُذْ لنفسك رضاها من نفسي في عافية، اللهم لا طاقة لي بالجهد، ولا صبر لي على البلاء، ولا قوَّة لي على الفقر، فلا تحظر عليَّ رِزقي، ولا تكلني إلى خلقِك، بل تفرَّد بحاجتي، وتولَّ كفايتي...»[(٢)]. سبحانك إنَّك منفسٌ عن المكروبين، ومفرّج عن المغمومين.

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٢٩، وبحار الأنوار: ج٦٤، ص٢٣١، باب ١٢.
(٢) الصحيفة السَّجادية: ص١٠٦، الدعاء ٢٢ من مناجاة عند الشدة.

من أسرار البلاء

إنَّ الله سبحانه ليبتلي المؤمنين بلاءً حسناً، ويبتليهم بالحسنات والسيئات لعلَّهم يرجعون، ولا ريب أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا يواجه بعض المشاكل التي تزعجه، وبعض الحوادث التي تؤلمه، وذلك بين وقت وآخر.

البلاء أشكال وأنواع:

فنحن نعلم أنَّ ما من يوم يمر في بعض الأحيان، إلاَّ ونُبتلى فيه في صحَّتنا أو عافيتنا أو جسدِنا أو مالِنا أو عائلتنا أو رزقنا. والإنسان بطبعه يُبغض المصاعب والأتعاب، وينشد الراحة والاستقرار، فيتمنى على كل حال أن لا يُصيبه مكروه. وهذا التمنّي، يبقى مُجرد تمنٍّ، ليس له أيُّ واقعية، فيقف الواحد منَّا عاجزاً أمامَ نوائبِ الدهر، وغدر الأيَّام، ونوازل الليل والنهار.

ولكن، هل فكَّرنا يوماً بإيجابية، مع أنواع البلاء التي تقع علينا، وكيف يمكن لنا أن نواجهها؟! وهل فكَّرنا يوماً بالأسرار، الكامنة وراء الابتلاءات والآفات التي تلحق بنا؟!

قد تتعجَّب من هذا الطرح، وتتساءل في نفسك: إيجابية للبلاء؟! عجباً وأين الإيجابية فيه وهو بلاء!!! وتتساءل أيضاً: أسرار للبلاء؟! وكيف يكون له أسرارٌ وخفايا؟!

فيا أخي المؤمن، عليك أن تصطبر قليلاً، وتقرأ جيداً ما يلي:

فلسفة البلاء:

هناك إيجابيات وأسرار تكمن في المصائب والمصاعب والابتلاءات التي تقع علينا، وتصبُّ جميعها في مجال التذكير، والامتحان، والتوجّه إلى الله سبحانه، وتكفير الذنوب، وتهذيب النفس، والرضا بالقضاء والقدر، والصبر، ومعرفة النِّعَم عند فقدانها، ومكافحة التجبّر والتكبّر في النفس، والسعي نحو التكامل، وكراهية الدنيا وحبِّ الآخرة، وغيرها من الأمور الأخرى التي يظهر بعضها في طيات الحديث.

فمن أسرار البلاء: التذكير بوجوب الطاعة لله والتوبة من الذنوب. فالإنسان ينسى، ويسهو، ويغتر في هذه الدنيا، خاصة، عندما تكثر عليه النِّعَم، فيبطر، ويبتعد عن الله سبحانه، ظنّاً منه أنَّ النِّعم التي بين يديه، ما حصلت إلاَّ نتيجة ذكائه وعلمه ونشاطه... ولا يدري المسكين أنَّ النِّعَم التي تنزل عليه بكثرة، لعلَّها نوع من أنواع الاستدراج حيث يسقط من دون أن يشعر، بعد أن يتمادى في غيِّه وعَمهه.

البلاء إيقاظ من الغفلة:

أما البلاء الذي يصيبه فيذكّره بضعفه، وبأنه إنسان، محدود القوة والطاقة، يضعف أمام النوائب، ويستسلم للمصائب، وتقهره المتاعب.

فالنعمة في مثل هذه الحالات، استدراج وتمادٍ في الذنوب والمعاصي ونسيان للاستغفار.

بينما البلاءُ، في مثل هذه الحالات، إيقاظ وخير من الله تعالى، وتذكير بالاستغفار، كما يقول علي عليه السلام: «إذا رأيت الله سبحانه، يتابع عليك البلاء فقد أيقظكَ، إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك النِّعَمَ، مع المعاصي، فهو استدراج لك»[١].

وهكذا نرى فضل الله عزَّ وجلَّ علينا، حيث عالج نسياننا وسهونا، عن الإنابة والتوبة والرجوع إليه، فيُصيبنا بما يزعجنا، ويقلق راحتنا.

ماذا لو رُفع البلاء:

تخيَّل نفسك، كم أنت بعيد عن الله، يا أخي، لو كنت مأمون الجانب من المرض أو الفقر أو الموت... وماذا كان يمكن أن يقع، لو أنَّ أنواع البلاء رُفعت عنَّا؟ أليس أكثر الناس يطغى، ويبغي فساداً في الأرض. وبالرغم من ضعفنا وتعرّضنا للمخاطر، فإنَّ الكثير منَّا ينحرفون عن جذورهم الإنسانية والخُلُقية. فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «لولا ثلاثة في ابن آدم، ما طأطأ رأسه شيء: المرض، والموت، والفقر، وكلُّهن فيه، وإنَّه لمعهُنَّ لوثَّاب»[٢].

فسبحان الله، ما أعجبك يا ابن آدم، فأنت معرَّض في كل لحظة، من لحظات حياتك المعدودة، للموت، أو الفقر، أو المرض وبالرغم من ذلك تبقى وثَّاباً متجبّراً.

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٣٥، وغرر الحكم: ح١٧٥٥ و٧٨٤٩.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٣٩، وبحار الأنوار: ج٦٩، ص٥٣، باب ٩٤.

هل يُدرك الناس فضل النِّعم؟

فالسر الأول من أسرار البلاء إذاً هو التذكير بِنعَم الله سبحانه. أما السرّ الثاني: فهو معرفة النِّعَم، لأن النِّعَم لا تُعرف عند أكثر الناس إلاّ عندما تُفتقدْ، فلعلَّ فقداننا للصحة، أو المال الذي لم نكن نلتفت أنَّه من نِعَم الله، يُعرّفنا أنَّ هذه النِّعم عزيزة على قلوبنا، وقد نسينا شكر معطيها، وحمدَ واهبها جلَّ وعلا.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد خرج للاستسقاء خاشعاً راغباً راهباً، قال: «إنَّ الله ليبتلي عباده عند الأعمال السيِّئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائبٌ، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر»[١].

البلاء تحلية وتطهير:

والسر الثالث من أسرار البلاء هو: تكفير الذنوب، فالله سبحانه إذا أكرم عبداً وأحبه، ابتلاه بالمرض، فإن بقي عليه ذنب، ابتلاه بالحاجة والفاقة، فإن بقي عليه ذنب، شدَّد عليه عند الموت، حتى يخرج من الدنيا خالصاً بريئاً من كافة ذنوبه، كما روي عن الباقر عليه السلام حيث قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى إذا كان من أمره أن يكرم عبداً، وله عنده ذنب، ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل فبالحاجة، فإن لم يفعل شدَّد عليه الموت...»[٢].

وجاء في رواية عن علي عليه السلام أنَّ هذا من خواص شيعته ومحبِّيه، حيث إنَّ الله تعالى يختصُّهم بالمحن ليُمْحص طاعاتهم،

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١٤٣، وميزان الحكمة: ح١٩٤٠.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٤٤، والكافي: ج٢، ص٤٤٤، ح١

يقول عليه السلام: «الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا، بمحنتهم، لتسلم بها طاعاتهم، ويستحقوا عليها ثوابها»[١].

فنحن نرى هنا بوضوح أنَّ في البلاء خيراً كثيراً، حيث إنَّه يُخرج الإنسان، طاهراً مطهَّراً، من الدُّنيا، وهذا ولا شك، أفضل له وأحسن، من أن يخرج منها مثقلاً بذنوبه، حاملاً ثقله على ظهره... فإنَّ عذاب الدُّنيا مهما كان كبيراً، يبقى أهون من عذاب الآخرة بنسبة لا تُقاس.

فهنيئاً لمن كان حسابه في الدُّنيا مستوفياً، فيخرج إلى الآخرة سالماً. وهنيئاً لمن استبدل عقاب آخرته بعقاب دنياه، فإنَّ لحظة من لحظات عذاب الآخرة، هي أشدُّ من كل عذاب الدُّنيا وما فيها.

بلاء الدنيا يُنجي من عذاب الآخرة:

والبشرى لأهل البلاء، بأن بلاءهم مهما اشتدَّ عليهم، فليتحمّلوه، فإنَّ الله تعالى يكتفي به، ويغفرُ لهم ولا يعذبهم في الآخرة، لأنَّه أكرم من أن يعذب عبده مرتين، كما يقول علي عليه السلام: «ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدُّنيا، إلاَّ كان الله أحلم، وأمجد، وأجود، وأكرم من أن يعود في عقابه يوم القيامة...»[٢].

ويحكى أنَّ يونس بن يعقوب أتى إلى الإمام الصادق، فسمعه يقول عليه السلام: «ملعون ملعون كلُّ بدن لا يصاب في كل أربعين يوماً»،

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٤١، وبحار الأنوار: ج٦٤، ص٢٣٢، باب ١٢.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٤٣، وبحار الأنوار: ج٧٥، ص٥٢، باب ١٦.

فيتعجب يونس، ويستفهم بتعجّب شديد: ملعون؟! فيجيبه الإمام عليه السلام مؤكّداً ثم يقول: «يا يونس إنَّ من البلية، الخدْشة، واللَّطْمة، والعثرة، والنكبة، والقفزة، وانقطاع الشسع وأشباه ذلك...»[١].

ثم يشير الإمام الصادق عليه السلام إلى حالة أعتقد أنَّها تُصيبنا جميعاً بين الفينة والأخرى وهي: عندما نشعر أحياناً بغمٍّ يصيبنا، ولا ندري من أين هو!! فهذا الغمُّ في الحقيقة، هو نوعٌ من البلاء والهدف من ورائه الحط من الذنوب...».

ظاهرة غريبة:

أفلا نشعر أحياناً بِهَمّ لا نعرف سبباً له؟! ففي جملة روايات مباركة أنَّ هذا نوع من البلاء الذي يكون سبباً لتكفير الذنوب. بل هناك حالة أخرى أغرب تستدعي العجب حقاً، وقد تحصل للكثيرين. ألم يصادف مرة أن عددت مبلغاً من المال كان معك فيظهر ناقصاً، فتحزن وتتألم، ثم تعدُّه مرة أخرى، فيظهر ناقصاً أيضاً، فتحزن أكثر، ثم تعدُّه للمرة الثالثة فيكون المبلغ صحيحاً وكاملاً، وما كان فقط، هو خطأ في الحساب أو العد؟

إنَّ نفس الغم أو الهم الذي تجده عندما تظن أن المال ناقص، فيه أجرٌ وتمحيص ومغفرة للذنوب، كما في بعض الروايات، ومنها رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في بحار الأنوار، وأخرى في كتاب الفوائد، ورواية ثالثة في قصص الأنبياء تشير إلى هذا الأمر.

إذاً فالسر الثالث من أسرار البلاء هو تكفير الذنوب.

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٤٥، بتصرف، وبحار الأنوار: ج٧٣، ص٣٥٤، باب ٦٧.

عظيم البلاء لعظيم الإيمان:

أما السر الرابع: فهو أن البلاء دليل على الإيمان، وعظيم البلاء دليل على عظيم الإيمان، لأن المؤمن يُبتلى على قدر إيمانه. وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يوصون أتباعهم وشيعتهم بالاستعداد لعظيم البلاء المتسارع إليهم.

فقد جاء في الرواية المشهورة عن الصادق عليه السلام قوله: «إنَّما المؤمن بمنزلة كفّة الميزان، كُلَّما زيد في إيمانه زيد في بلائه»[1].

تزهيد بالدنيا:

والسر الخامس من أسرار البلاء: أنَّه يكرِّه الدُّنيا ويرغِّب في الآخرة.

أمَّا كراهية الدُّنيا فلشدّة ما يجد فيها من فتن وغدر ومرضٍ وتعبٍ وهمٍّ، وأملٍ لا يدرك... وأمَّا حبُّ الآخرة فلأجل الراحة بلقاء الله سبحانه، حيث روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «هبط إليَّ جبرائيل في أحسن صورة فقال: يا محمد! الحقُّ يقرئك السلام، ويقول لك: إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرَّري، وتكدَّري، وتضَّيقي، وتشدَّدي على أوليائي حتى يُحبُّوا لقائي...»[2].

والسرُّ السادس من أسرار البلاء، هو أن هناك درجة في الجنَّة لا يبلُغها إلاَّ أهلُ البلاء، كما أنَّ هناك درجة لا يبلغها إلاَّ الشُّهداء. وهذه الدرجة لا يُدركها، إلاَّ من ابتلي في جسده، أو بذهاب ماله،

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٥٠، والكافي: ج٢، ص٢٥٣، ح١٠.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٦٣، وبحار الأنوار: ج٧٨، ص١٩٤، باب ١.

أو بأنواع خاصة من أنواع البلاء، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ في الجنَّة منزلة لا يبلغها عبدٌ إلاً بالابتلاء في جسده»[(١)].

البلاء سبيل المقامات العالية:

وهنالك السر السابع أيضاً: هو أن حبَّ الله سبحانه لعبدٍ من عباده، واستخلاصه له، يوجب امتحانه، وترويضه ليُهيّأ لمقامٍ في الدُّنيا أو الآخرة.

فالبلاء قد يكون عملية تهذيب نفسيّ، وتكامل خلقيّ في سبيل السالكين إلى الله سبحانه... ويكفي هنا أن نتذكّر مطلع الدُّعاء المبارك، دعاء الندبة إذ يقول عليه السلام فيه: «اللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك، إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال...»[(٢)].

أزمة اشتدي تنفرجي:

والسر الثامن الذي نذكره هو أن اشتداد البلاء علامة على قرب الفرج، حيث يكون قد بلغ أوجهُ وذروته.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أضيق الأمر، أدناه من الفرج»[(٣)].

فهذه لمحة عامة وسريعة وموجزة، حول بعضٍ من أسرار البلاء وإيجابياته، ينبغي أن نستحضرها ونتذكَّرها دائماً، مستعينين بها في

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٦٥، والكافي: ج٢، ص٢٥٥، ح١٤.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٦١، وبحار الأنوار: ج٩٩، ص١٠٤، باب ٧.
(٣) ميزان الحكمة: ح١٩٨١، وبحار الأنوار، ج٧٤، ص١٦٦، باب ٧.

هذه الحياة مع عظيم الحاجة إليها، ومع تمام توجهنا الصادق لله سبحانه... وعلينا عند البلاء أن نكثر من قولنا: لاحول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم، كي لا يكِلنا إلى أنفسنا بل يتولى سبحانه كلَّ أمورنا، وأن نقول مكثرين: «يا رؤوف يا رحيم»، وأن نحتسب كلَّ أنواع البلاء عند الله سبحانه، متأسين في ذلك بالأنبياء والأوصياء والصلحاء.

سبحانك وبحمدك: «من كنت سبباً في بلائه، وجب عليك التلطُّف في علاج دائه»[1].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٩٠ عن الأمير عليه السلام، وغرر الحكم: ح٩٩٩٩.

الصبر الجميل

إنَّ الحياة التي نعيش فيها محشوّة بالمفاجآت الكثيرة التي قد تُرضي أصحابها أحياناً، لما تحمِله من خير وبِشرْ، ولا تُرْضيهم في أحيان كثيرة أخرى، لِمَا تحمله من متاعب ومصاعب، حيث تصبح الحياة عندها شاقَّة ومُعسرة.

متاعب الحياة كثيرة:

من السهولة أن ترى في كل يوم طائفة من الناس وهي تتأفَّف متذمرة ومنزعجة من حالتها الاجتماعية أو الشخصية أو العملية أو الاقتصادية... وترى بعض الناس وقد احتارت ألبابهم، وتشتّتت أذهانهم، فيمَ يتحركون وكيف يتصرفون؟ كما ترى البعض الآخر، وقد ناؤوا بالحمولة الثقيلة، فانهاروا تحت وطئِها، جزِعين خائفين، يجرون متاعب إلى متاعبهم، وخسارة إلى خساراتهم...

كل هذا يحصل والناس في حيرةٍ من أمرهم، كيف يمكن لهم أن يتغلَّبوا على هذه الأحوال والمظاهر، ليبقوا فاعلين في الحياة، يتحكمون بحد أدنى من الراحة النفسية، حتى لا يغرقوا في لجج التعاسة، وغمرات الخوف والوجل.

الصبر هو الحلّ:

الحلّ الوحيد لهذه الحالة، هو مسلك الصالحين والحكماء من

عباد الله، في الأمم السالفة، حيث استعانوا على كلّ ما قد يعترضهم من خبايا الليل والنهار وطوارئ الأيام والزمان، استعانوا بالصبر كمنهج وسبيلٍ كريم، ليمتلكوا قوَّة الاستمرار والتداوم في عمرهم المحدود، الذي لا يستطيعون أن يفرّوا منه، ولا هو يفر منهم.

فقد حدَّثنا القرآن الكريم، كما حدّثتنا الروايات والأحاديث المباركة، وكذلك كتب الحكمة والموعظة والتاريخ، حدّثتنا عن ملاحم في الصبر والصابرين، والثبات والثابتين، والاحتساب والمحتسبين، حيث يتيقن الإنسان أنَّه لولا الصبر، ما قام للدين عمود، ولا اخضرَّ للإسلام عود، ولَمَا وصلتنا العلوم والمواقف النافعة والناجعة... ولولا الصبر، ما أُحقَّ حقٌّ في الدُّنيا، ولا انتصر مستضعف، ولا وصلت مسيرة إلى هدفها.

يقول الله سبحانه مادحاً الذين سبقونا من أهل الهدى واليقين، مشيراً إلى صفة الصبر فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[١].

ويقول سبحانه عن أهل العمل الصالح، والدعاة إلى طاعته، الذين يدفعون السيئة بالحسنة، مدللاً على جزائهم: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢].

هذه الصفات الشريفة، لا تكون لأي إنسان بمجرد إرادته، إنَّما تكون بعد طول عمل واحتساب ومجاهدة نفس.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

كل الأنبياء صابرون:

أما أنبياء الله سبحانه وتعالى، فلا تجد واحداً من بينهم جميعاً، إلا وقد وُصف بالصبر، لأنهم تحمَّلوا كلَّ مكائد ومخطّطات ومكر الكفَّار والجاحدين، واستمرّوا دعاةً لمسيرة التوحيد، فلولا صبرهم، ما بقي للموحِّدين عينٌ ولا أثر في هذه الدنيا، وهذا مخالف لما بُعِثوا إليه، عليهم السلام، وهم، إنما بُعثوا ليبشِّروا وينذِروا ويُبلِّغوا ويصبروا، وليكونوا مثالاً ونموذجاً عالياً للصبر والتحمُّل والمثابرة في تحقيق الحق، وإحقاقه، ورفعِ شعاراته ونواميسه.

من هنا، كان الأنبياء، على نبيّنا وآله وعليهم جميعاً أفضل الصلوات والتسليمات، كانوا النموذج الأرفع والأسمى للصبر حتى اتَّصفوا فيه، وعُرِفوا به، ولولا ذلك لم يُعَدُّوا عليهم السلام من الكاملين، لأنَّ من افتقد هذه الصفة، لا يُعتبر كاملاً في تهذيب نفسه وتزكيتها، وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام في تحف العقول إلى ذلك المعنى بقوله: «لا ينبغي... لمن لم يكن صبوراً أن يعدَّ كاملاً»[1].

فالأنبياء عليهم السلام هم الكاملون بصبرهم، كما أنهم الكاملون بإيمانهم، وعقيدتهم ويقينهم وقلوبهم ونفوسهم... ولذا امتدح الله سبحانه في كتابه المجيد، سادتهم ووصفهم بأولي العزم، لقوَّة عزمهم وجَلَدهم، وسمَّاهم بهذا الاسم، مخلَّدين في القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

فإذا كان الخُلَّص من عباد الله على هذه الصفة، وبتلك

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠٠٢٢، نقلاً عن تحف العقول: ص٣٦٤.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

الوضعيَّة، فماذا عساي أنا وأنت، أن نقول أو نفعل غير ذلك، وأن نستعين على حياتنا بما استعان به الأنبياء عليهم السلام على هذه الحياة. إذ ليس للمؤمن أن يقول غير هذا القول، أو أن يبتدع تشريعاً آخر، أو أن يظن أن هناك سنَّة اكتشفها وقد حُرم الأنبياء منها...

ترك الصبر تفريطٌ بالإيمان:

فهم المثل الأعلى في كافة الأمور، ومنها الصبر والاحتساب والقُربة في سائر الأعمال، ونحن على نهجهم متّبِعون بتوفيق الله وتسديده، لنحافظ على إيماننا، لأن الإيمان لا يمكن أن يستمر دون صبرٍ، لعظيم أعدائه ومعانديه، فإذا استغنينا عن الصبر فهذا يعني مباشرةً، استغناءنا عن الإيمان، وهو ممَّا لا يرضاه مسلم لنفسه ولا لإخوانه.

روي عن الصادق عليه السلام قوله: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[١].

ونحن نعلم أن كافة الأمور فيها حكمٌ شرعي لا بد من تطبيقه، إن كان بالامتناع عنه لأنه حرام، أو بإتيانه لأنه واجب مثلاً، وهذا يحتاج لنفس طويل، ويقظة كاملة، وحسن توكّل... ولا تكون هذه الأمور إلا بالصبر،... أما التضحية به وتجاوزه فإنما هي تضحية بالدين، حيث يقول علي عليه السلام: «أيها الناس عليكم بالصبر فإنه لا دين لمن لا صبر له»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠٠٦٦، وبحار الأنوار: ج٦٨، ص٨١، باب ٦٢، ح١٧.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٠٠٦٧، وجامع الأخبار: ص١١٦.

لا نجاح بدون صبر:

وكذلك كافة الأمور، وخاصة الصعبة منها التي تحتاج إلى وقت وجهد طويلين، ولا يمكن الوصول إليها بالصبر... فدراستُك الجامعية، وتخطيطك الاقتصادي، والمشاريع التجارية، وبناء المنزل أو تأسيسه، واتّساع شبكَتِك الاجتماعية، واكتساب ثقة الناس، وتحقيق النصر السياسي أو العسكري والوصول إلى تطبيق حكم الله في الأرض، وتحرير المُغْتصَب منها والمحتل... إنَّ كلَّ هذه الأمور، وما شابهها تحتاج إلى صبر يرفدها ويمدُّها بأنواع الامدادات، وإلاَّ فإنَّ فرداً أو جماعة لن يصلوا إلى أهدافهم أو أغراضهم الصغيرة أو الكبيرة.

روي عن عيسى عليه السلام: «إنَّكم لا تُدركون ما تُحبون إلاَّ بصبركم على ما تكرهون»[1]. وهذه القاعدة جارية في كل البشر حتى الكفار منهم، فتراهم يصبرون ويتصبّرون، ويثابرون بجد للوصول إلى أهدافهم، بدءاً من بناء مستشفى أو مدرسة أو مؤسّسة، وانتهاءً ببناء حكومة أو دولة أو كيان... وربما يتسلّطون على بلاد أخرى. فهل تظن أنهم لو تضجَّروا وتذمَّروا وتأفَّفوا، هل تظن أنَّهم يصلون إلى ما وصلوا إليه؟!.

وإذا كانوا هم كذلك، فكيف بنا نحن؟! وإمامنا عليٌّ عليه السلام يقول: «بالصبر تدرك الرغائب»[2].

إنَّ إعداد العُدَّة والتأهّب إنَّما يكون بالصبر، إن كان للوصول

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠٠٢١، وبحار الأنوار: ج٧٩، ص١٣٧، باب ١٨.
(٢) ميزان الحكمة: ١٠٠٥٨، وغرر الحكم: ح٦٣٦٤.

إلى الهدف أو لمواجهة الهموم، أو نوائب الدَّهر، أو المصائب، أو الفقر، أو البلايا والرزايا والأعداء والافتراءات والحسد والاعتداء أو التخطيط والتدريب والجهاد والقتال... والسَجْنِ والأسر والظلم والقهر.

الصابر حبيب الله:

ولا نظن أن واحداً منَّا خالٍ من حالة من الحالات المتقدِّمة، إن لم يكن أكثر، بل ربما جميعها، ولا يُنقِذ نفسه إلا بإعداد الصبر لها ولمثيلاتها، وعندئذٍ ينقلب بأسوأ نعماء، فيؤجر، ويفوز، ويصبح حبيباً لله تعالى الذي يقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]. كما يصبح الله معه لأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]. ثم تكون الراحة والفرج، لقول رسول الله ﷺ: «إنَّ النصر مع الصبر، والفَرَج مع الكَرْب، وإنَّ مع العُسر يُسراً»[3].

فلعلَّ الله سبحانه يريد أن يمتحننا، أو يُمحِّصنا، ليعلم مقدار صبرنا على المرض أو البؤس والشقاء، أو نزول البلاء، أو النقص في المال والرزق... إذ ما من شكٍّ أنه سبحانه لا يريد ظلماً للعباد، بقدر ما يعدُهُم وعداً حسناً، وأجراً عظيماً، في الدنيا والآخرة... وإن كان الإنسان بطبعه ولقلَّة يقينه، يحبّ الأجر السريع المرئيّ الجاهز، ولا يتحمَّس كثيراً للثواب المؤجَّل له، وإن كان أعظم، بينما لو اطّلع على الغيب لوجد أن المخبَّأ له أعظم وأغنى ممَّا هو موجود الآن بين يديه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٣) ميزان الحكمة: ح١٠٠٦٨، ووسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٦٣، باب ٢٥، ح٢٠٤٥٧.

يقول رسول الله ﷺ: «عجبت للمؤمن وجَزَعه من السقَم، ولو علم ما له في السقم لأحبَّ أن لا يزال سقيماً حتى يلقى ربّه عزَّ وجلَّ»[١].

ترك الصبر مصيبة:

وبناءً على ما تقدَّم، فليست المصيبة هي الشيء الذي ينفر منه الإنسان، ولا يحبّه، ثمَّ يصبر عليه ويحتسبه عند خالقه سبحانه، فيؤجر عليه، إنما المصيبة هي الشيء، الذي لا يملك عليه صبراً ولا تحمّلاً، كما قال الصادق عليه السلام: «لا تَعُدَّنَّ مصيبة أُعطيت عليها الصبر، واستوجبت عليها من الله ثواباً بمصيبة، إنما المصيبة التي يُحرم صاحبها أجرها وثوابها إذا لم يصبر عند نزولها»[٢].

وقد جعل الله سبحانه من سنّته إصابة البلاء للبشر، وبشَّر الصابرين على صبرهم فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٣].

لا فوز إلّا بالصبر:

إننا في زمانٍ لا ينجو فيه إلا من استعان بالله، وتوكَّل على الله، واحتسبَ عند الله سبحانه، وأرجع أموره كافة إليه جلَّ وعلا. كما أننا في زمان، تشتد فيه الحاجة إلى صبرٍ مقيم للمحافظة على

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠٠٨١، وبحار الأنوار: ج٧٨، ص٢١٠، باب ٢.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٠٠٧٩، وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٩٤، باب ٦٢.
(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

الدين والتقوى والورع، حتى لا نُفْتنَ بسلطة أو رئاسة أو مُلْك أو مال، في زمانٍ هو أكثر الأزمنة فتنة ولا يمكن اجتيازه بسلام إلا إذا تسلّحنا بصبر عظيم، وقد قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ، لا ينال فيه الملك إلا بالقتل والتجبُّر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان، فصبر على البُغْضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الفقر وهو يقدر على الغِنى، وصبر على الذُّل، وهو يقدر على العزّ، آتاه الله ثواب خمسين صدِّيقاً، ممَّن صدَّق به»[١].

فلنكن في هذا الزمن المُفْتِن، من أهل الحق وأنصاره وأعوانه وناشري لوائه... وإن كان الحق مكلّفاً، أو مرّاً. فهكذا كان أئمَّتنا عليهم السلام... وها هو علي بن الحسين السجَّاد عليه السلام على فراش الموت، وقد حضرته الوفاة، فإذا به يضم ابنه الباقر عليه السلام إلى صدره ويقول: «أي بني، أوصيك بما أوصاني به أبي حيث حضرته الوفاة، وبما ذَكّر أن أبّاه عليه السلام أوصاه به، أي بني اصبر على الحق وإن كان مرّاً»[٢].

سبحانك اللهم وبحمدك،... «أنت كما تقول، وفوق ما تقول، اللهم إنِّي أسألك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، وقولاً صادقاً، وأجراً عظيماً...»[٣].

---

(١) مشكاة الأنوار: ص١٩، وبحار الأنوار، ج٦٧، ص١٨٣، باب ٥٢.
(٢) مشكاة الأنوار: ص٢٢، ووسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٣٧، باب ١٩، ح٢٠٣٧٠.
(٣) من دعاء أبي حمزة الثمالي، انظر بحار الأنوار: ج٢٥، ص٩١، باب ٦.

بشرى الصابرين

يرغب كلُّ إنسان في هذه الدُّنيا، أن يعيش بهدوء وأمان، وأن لا يصيبه مكروه، لا سمح الله، فإذا وقع به ما يكره، تمنَّى أن يرتفع ذلك عنه، ليتخلَّص منه، فهو لا يريد أن يصاب بمرضٍ أو حزنٍ أو خسارة أو نكسة مادِّية، أو معنوية...

لا بديل للصبر:

ويبقى هذا التمنّي نظرياً، لأن الأحداث الحياتية المتسارعة تبقى الأقدر على فرض سننها في هذه الحياة، فقلَّما تمرّ الأيام أو الأسابيع حتى يصاب أحدُنا بمكروه طالما تحذَّر وأوجس منه خيفةً.

في الحالات الصعبة هذه، والتي تصيب كلَّ واحد منَّا، لا مجال أمامنا إلا في خيارين: إما أن نصبر ونرضى بقضاء الله علينا، وإمَّا أن نتذمَّر ونتضجَّر، فلنر نتيجة كل خيارٍ على حدة.

تُرى ماذا يمكن أن نُحصِّل من اعتراضنا وتأفُّفنا على أمر الله؟ هل يمكن لنا أن نردَّ القضاء؟! أو هل يمكن تغيير الواقع؟! أو تبديل الحدثِ المكروه؟!

الجواب، كما نعرفه جميعاً، هو: إنَّ شيئاً من ذلك لا يقع ولا

يمكن أن يقع... فالكراهية للحدث أو الخوف أو السخط لا تغيِّر من الواقع شيئاً.

كذلك الصراخ والنحيب والجزع والانهيار والاستسلام، كلُّها أثقال جديدة إضافية تُضاف إلى أثقالنا، وهمومٌ تضاف إلى همومنا، وما من أحدٍ منَّا يستطيع أن يردَّ القضاء أو يبدِّل القدر.

والحق يقال: إنَّ كثيراً من الناس، غير راضين بنصيبهم من المعاش أو الرزق أو الحياة العائلية أو الزوجية أو الاجتماعية... وتبقى ظروفهم واحدة لا تتغيّر مهما جزعوا وخافوا وتذمَّروا لأنَّ الحياة لا تكون ولا تستمر طبقاً لإرادة كل إنسان على حدة.

ترويض النفس على الصبر:

ولا يعني هذا أن نتعوّد الاستسلام أمام المصاعب التي يمكن تغييرُها إلى حالٍ أحسن، إنّما المقصود هو: ترويض النفس على المكاره المادية أو المعنوية التي لا تدخل الإرادة البشرية أو الشخصية في رسم معالمها وصورتها، إذ على كل إنسان، وُجِد في هذه الدُّنيا، أن يسلِّم بأمور غيبيَّة وأحداث تتعلق بأمنه ومستقبله الشخصي، لا يملك تجاهها أيّ قدرة تغييرية أو تبديلية.

فكما أنَّ الأحداث المفرحة والمؤاتية له، تصبُّ في مصلحته من دون توجيه منه ولا تخطيط، كذلك الأحداث المحزنة والمخالفة له، تصبّ في غير مصلحته، بحسب الظاهر على الأقل، من دون إرادة منه ولا توجيه ولا اختيار.

وعلى المؤمن الصادق في إيمانه، أو يروِّض نفسه على الصبر، والرِّضا بقضاء الله وقدره، فيما يتعلق بأمورٍ هي أكبر من قوَّته

وطاقته، ولا يملك في مقابلها تغييراً ولا تبديلاً ولا تعديلاً، فعليه التسليم بأنه لا يبلغ حقيقة الإيمان إلا أن يعلم: أنَّ ما أصابه ما كان ليخطئه، وما أخطأه ما كان ليصيبه... وأيضاً أن يعلم أن قضاء الله نافذ على كل حال، إنْ كان ذلك برضاه، فيمضي القضاء، ويؤجر، ... وإن كان ذلك بغير رضاه، فيمضي القضاء أيضاً، بلا استئذان منه، فلا يؤجر.

الجزع لا يردُّ القضاء:

ففي كلتا الحالتين: القضاء نافذ... فعليه أن يكون حكيماً ويصبر ليحصل على الأجر، ويُخفِّف من المصيبة، ويحاصرها. ولا يكون أحمق، فلا يصبر ولا يحصل على الأجر، ويزيد مصائب إلى مصيبته... وعلى الرغم من ذلك لا يُقدم، ولا يؤخر، ولا يُغير، ولا يُبدل... والقضاء ماضٍ عليه.

وروي عن علي عليه السلام قوله: «إنَّك إن صبرت، جَرَتْ عليك المقادير وأنت مأجور، وإنَّك إن جزعت، جَرَتْ عليك المقادير وأنت مأزور»[١].

فالمؤمنون في مواجهة ما كُتب عليهم في قضاء الله وعلمه وقدره، نوعان:

الأول: هو الذي يَصبر، ويوكل أمره لله سبحانه، ويحمد الله على كل حال، ويرضى بما صنع الله له، فينفذ فيه القضاء، وهو محافظ على وقاره وهيبته وإيمانه وورعه وتسليمه، ويُخفّف بذلك ممَّا

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠١١٢، ومستدرك الوسائل: ج٢، ص٤٣١، باب ٦٤، ح٢٣٧٧ ـ ٤٠.

أصابه، وينال الأجر العظيم، وعليه من ربّه تبارك وتعالى صلواتٌ، ورحمةٌ، ويكون من المهتدين.

والنوع الثاني: هو الذي لا يصبر، ولا يلجأ إلى الله سبحانه، ويسخط ممَّا أصابه... فالمسكين هذا، ينفذ فيه القضاء، ويزيد مصيبة إلى مصيبته، ويُحبط أجره، ويخسر عمله، ويكون مذموماً عند الله سبحانه.

وها هو الإمام عليه السلام يتوجّه بالنصيحة إلى من خسر كلَّ ماله، وتكاثرت الديون عليه، فيقول له عليه السلام: «إن تصبر تغتبط، وإن لا تصبر يُنفِذ الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً»[1].

فمن أي النوعين نحن يا ترى؟ ونحن نعلم أنَّ القضاء الإلهيَّ نافذ علينا في كل حال؟ فهل نسينا أجر الله، وكرَمه تبارك وتعالى؟! أم هل نظن أنَّ الله ظالم لعباده، والعياذ بالله؟! أم نشكُّ أنَّ ما يجري بكل تفاصيله، إنَّما يجري تحت علم الله سبحانه، ونظره، ومراقبته، وهو فوق ذلك، على كل شيء قدير.

أفلا نؤمن نحن، ونبشّر الآخرين من الناس، أنَّ الله عادلٌ، لا يظلم أبداً؟!! أوليس من الواجب علينا الاعتقاد بأنَّ الله سبحانه يُثيب ويأجر على كل شيء، بل هو سبحانه الأكرم والمُعطي والواهب والرَّازق والمنَّان؟!!

التسليم لأمر الله سبحانه:

هكذا كانت سيرة السلف الصالح، وأهل الزلفى والقربى، وفي

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٠١١١، ووسائل الشيعة: ج٣، ص٢٥٨، باب ٧٦، ح٣٥٧١.

مقدَّمِهم، حبيب قلبي، وحبيب قلبك محمَّد ﷺ... فلما تُوفي ابنه الطاهر عليه السلام ورأى أمّه خديجة رضوان الله عليها تبكي، قال لها ﷺ: «أما ترضين أن تجديه قائماً لك على باب الجنَّة؟ فإذا رآك أخذَ بيدكِ، فأدخلك الجنَّة، أطهرها مكاناً، وأطيبها» فاستغربت من قوله ﷺ فسألَته مستفهمةً عن ذلك، فتابع ﷺ قائلاً: «الله أعزُّ وأكرم من أن يسلب عبداً ثمرة فؤاده، فيصبر ويحتسب ويحمد الله، ثم يعذبه»[١] أي أنَّه عزَّ وجلَّ أكرم من أن يُعذِّب عبده، بل يُعطيه هذه المقامات العالية التي يرجوها كلُّ إنسان، وهي غاية ما يتمناه.

نعم هكذا كانت سيرة الصالحين من عباد الله، النبي ﷺ وأئمَّة أهل البيت عليهم السلام، فيصبرون على الصغير والكبير من الأحداث والمفاجآت المؤلمة... وكانوا يُربُّون شيعتهم وأتباعهم على ذلك، ليقتدوا بهم. فعندما تُوفّي إسماعيل بن المفضل بن عمر، بعث الإمام الصادق عليه السلام ابنه الإمام الكاظم عليه السلام لتقديم العزاء، وكان ذلك بعد وفاة إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام فقال له: «أقرئ المفضَّل السلام، وقل له، إنَّا أُصبنا بإسماعيل فصبرنا، فاصبر كما صبرنا، إنَّا إذا أردنا أمراً، وأراد الله أمراً سلَّمناه لأمر الله»[٢].

أجل هكذا كانت توجيهات رسول الله ﷺ لزوجته خديجة عليها السلام، وهكذا كانت توصيات الأئمَّة عليهم السلام لأصحابهم وشيعتهم. وهؤلاء هم القدوة والأسوة الحسنة، ونعم القدوة هم، عليهم أفضل الصلوات والتسليمات المباركات.

وهل أعظم من أن يصاب الإنسان بابنه، وفلذة كبده؟... فها

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٢٣.
(٢) مشكاة الأنوار: ص٢٠.

هو الرسول ﷺ أصيب بذلك، وصبر، والإمام الصادق عليه السلام أصيب بذلك، وصبر...

ويقف أمير المؤمنين عليه السلام وقد عزّى الأشعث بن قيس عن ابنٍ له، يقف مخاطباً كل أُمٍّ أو أبٍ فقدا ابنهما... يقول عليه السلام للأشعث: «يا أشعث، إنْ تحزن على ابنك، فقد استحقَّت منك ذلك الرحم، وإن تصبر ففي الله من كلِّ مصيبة خَلَف، يا أشعث، إن صبرت جرى عليك القدَر وأنت مأجور، وإن جزعْت جرى عليك القدر وأنت مأزور، يا أشعث، ابنُك سرّك وهو بلاء وفِتنةٌ، وحزنك هو ثواب ورحمة»[1].

كيف نكتسب مَلَكة الصبر:

ويُنصح من أراد أن يمتلك هذه الفضيلة التي حملها من قبله أنبياء الله عليهم السلام، يُنصح بعدَّة أمور:

أولاً: بتعويد نفسه التصبُّر، أي باصطناع الصبر ومحاولة اكتسابه، لأن الصفات الخلقية الحميدة إنما تحصل بالتدريب والترويض... فمن لم يكن مالكاً لصفة الصبر، عليه أن يُعوِّد نفسه، ولو تكلُّفاً في بداية الأمر على تقليد الصابرين، كما روي عن علي عليه السلام: «عوِّد نفسك التصبُّر على المكروه، ونعم الخُلُق التصبُّر في الحق»[2].

ثانياً: أن يكون يقينه بالله عظيماً، وأنَّه سبحانه، المطَّلع على كل الأمور، والقادر والرؤوف، والرحيم، الودود، اللطيف، الحنَّان

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٢٩١.

(٢) نهج البلاغة: الوصية ٣١، وميزان الحكمة: ح١٠١٢٩.

علينا أكثر من حنان الأُمّ على ابنها. وأن نؤمن، أن ما يجري تحت إرادته وسلطانه، ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وأن كلَّ الأمور راجعة إليه، وأنَّه العادل في ثوابه والكريم في عطائه، والراحم مع عباده. وأنَّه سبحانه القادر على أن يُنزل السكينة، ويُفرغ الصبر، ويربط على القلوب، يقول سبحانه واصفاً حال أم موسى عليه السلام: ﴿كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

ويقول علي عليه السلام: «أصل الصبر حسن اليقين بالله»[٢].

ثالثاً: تعويد النفس على اجتياز المصاعب والنكبات، والاقتداء بالأنبياء عليهم السلام في صبرهم، وعدم الجزع من شيء قبل وقوعه، ولا بعده، وإمعان النظر في سلوك الصابرين ممَّن نعرف من العلماء والمؤمنين وأهل الصلاح، وكيف أنهم اجتازوا الأهوال دون تراجُع أو تخاذل، وأن يكون ممَّن ذكرهم الإمام علي عليه السلام في قوله: «من توالت عليه نكبات الزمان، اكتسبَتْه فضيلة الصبر»[٣].

وتبقى مفاجأة تستأنس بها النفس، ويطمئن لها القلب، ويَثْلج بها الصدر، وهي، أن يكون الشيعة الصابرون الصادقون، في مقامِ عليٍّ.

نعم، هذا ما نطقت به أكثر من رواية مباركة، ولعلَّها تُحمل على أن الأئمة عليهم السلام يصبرون على يقين، بينما شيعتهم يصبرون على غير هذا اليقين، أو أنَّ الأئمة عليهم السلام يصبرون على ما علموا وقوعه،

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٠.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٠١٢٧، وغرر الحكم: ح٦٢٣٥.

(٣) ميزان الحكمة: ح١٠١٢٦، وغرر الحكم: ح٦٢٥٥.

فينزل بهم مخففاً وقد استعدُّوا له، أما شيعتهم فينزل بهم البلاء فجأة، دون سابق علم، فينزل شديداً. والرواية المباركة عن الصادق عليه السلام تؤكّد ذلك، فقد جاء عنه عليه السلام قوله: «إنَّا صُبَّر، وشيعتنا أصبر منَّا». فقال أحد الأصحاب متعجّباً: كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟! قال عليه السلام: «لأنَّا نصبر على ما نعلم، وشيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون»[1].

فهل نصبر كذلك، ونستحق شرف الانتماء إلى هؤلاء؟! ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾[3].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٩٣، ح٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٦.

حسن الظن

الحمد لله رب العالمين، الذي أرشدنا إلى وجوب حسن الظن به، وجعل ذلك من العبادة، ووعدنا على ذلك الجنَّة، والذي قيّض لنا سيدنا ونبيّنا محمَّداً وآله، الذين أمرونا بترك سوء الظن والتجسُّس على عباد الله الصالحين، إذ من الأمور الهامة والحسَّاسة التي تفعل فعلها في تمتين العلاقات الفردية والاجتماعية أو عدمه، مسألة حسن الظن بالآخرين أو سوء الظن بهم.

التهمة افتراء وافتراق:

فالعلاقات بين الناس، تتعرض في أحيان كثيرة لاهتزاز أو أزمة، بسبب تهمة وُجِّهت لأخٍ أو لقريب أو لجارٍ أو لصديق. وهذه التهمة، كما نرى غالباً، لا تكون مبنية على أسس حسّية واضحة، أو على برهان قاطع، أو على بيّنة تفيد اليقين، وإنما هي مجموعة من الأوهام والتخيلات القابلة للتمدد والتقلّص، والانقباض والانبساط، بحسب علاقتنا بهذا الشخص أو ذاك.

فكثيراً ما نرى أن علاقة متينة كانت بين شخصين أو عائلتين، سرعان ما أصابها الوَهَن أو الفراق، لقصة موهومة، أو رواية مظنونة، أو خبرٍ عابر لا يُعرف مصدره أو ظروفه... فتسوء العلاقات، وتنتشر الإشاعات، وتُحاك الافتراءات، وينشغل المرءُ

فيما قيل عنه أو فيه، وينشغل بما يريد أن يقول وكيف يردُّ أقوال القائلين، فتراه يُفكّر في ذلك، ليل نهار، حتى أنه لا يعطي العبادة حقّها. .. فينصرف ذهنه في التخطيط والأخذ والرد، واحتمال الاحتمالات، وافتراض التطورات، حتى أنك ترانا نخوض بهذه الأمور ونحن واقفون في صلاتنا، أو ونحن نتلو كتاب ربّنا، أو نستمع إلى خطبة أو موعظة، ونكون ناظرين من دون وعي لما يقال.

لا يُؤخذ بسوء الظن:

كلُّ هذا نتيجة سوء الظن الذي ليس له أساس حقيقي حسّي في غالب الأحيان، ولو افترضنا أن له ذلك، إلا أنه في أكثره لا يجوز الخوض فيه شرعاً، لما فيه من غيبة أو هتك مؤمن، أو فضح سرّ، أو كشف عورة أو إشاعة فاحشة.

فمن قال لك إن الظنون تُبنى عليها الأحكام، ويأخذ بها العقلاء والحكماء؟! ومن قال لك إن الظنون وحتى، عند ثبوت صحتها، يجوز نقلها أو إشاعتها أو إخبارها للآخرين؟!

سوء الظن شِقاق:

وفي حقيقة الأمر إن سوء الظن لا يؤدي إلَّا إلى ارتباك في المجتمع والعلاقات، وإلى انشغالات جانبية وهمية، وإلى التلهّي عن الأهداف الأساسية، إن كانت تجارية أو إنشائية اقتصادية أو سياسية أو غيرها.

فكم من المشاريع توقفت نتيجة توتر العلاقات بين القيِّمين عليها، فقد كان من هدفهم إنشاء مستشفى أو مستوصف أو مسجد،

فإذا بالطمع والتكبر يُطمعهم بالتمادي في سوء ظنّ، لسبب ما، وإذا المشروع يتعطل، والأموال تهدر، والأوقات تُبدد... ويا ليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل قد يؤدي ذلك إلى الهموم والغموم والغضب والسُّباب، وقد يؤدي إلى أمراض مزمنة أو إلى سكتة قلبية، قد لا تجعل حدّاً للمعركة، ولكن تجعل حداً لأشخاصها.

وكم من الأهداف السامية على صعيد الدولة والحكومة والسياسة والجهاد والمقاومة، توقفت أو تعثَّرت أو ضلَّت سبيلها، نتيجة سوء الظنّ، أو حكم طائش، أو تخيّل تهمة.

وكم من المنافسات بين المسؤولين حصلت، وكم من الانقسامات وقعت، وكم من الغيبة اقترفت في المجالس الخاصة والعامة، نتيجة نقل غير دقيق، أو من صاحب مصلحة وهوى... وكان سوء الظن حاضراً، ليحيك الرواية ويحبكها بطريقة جذَّابة تؤدي إلى التصديق بها.

سوء الظن متاهات:

إن هذا يؤدي بنا جميعاً إلى التورط في المتاعب والمتاهات التي نحتار كيف دخلناها، ولا ندري كيف يُمكن الخروج منها، مع ما يؤثر ذلك على روحيتنا وتديّننا وسعينا الدؤوب، لتهذيب النفس وإصلاحها، بينما لو التفتنا لحقيقة الأمر واستبدلنا سوء الظن، بحسن الظن، والتهمة العابرة، بمحمل حسن، أو موقف لائق، لوفّرنا الكثير على أنفسنا وأعصابنا وأوقاتنا... وقبل وأهم من كل شيء، على آخرتنا وحسابنا بين يدي مولانا الكريم.

فقد روي عن علي عليه السلام قوله: «حسن الظن راحة القلب

وسلامة الدين»[١]. كما روي عنه عليه السلام في هذا المجال وهذا السياق: «حسن الظن يخفّف الهمَّ، وينجي من تقلُّد الإثم»[٢].

فمن منَّا لا يريد تحسين علاقته مع ربّه عزَّ وجلَّ، وتصفيتها من كل شائبة وعائبة، وأن ينجو من شدّة المعاتبة، ومن سوء العاقبة؟! وأيُّ مؤمن صادق في إيمانه، مستعدٌّ للتضحية بدينه، وراحته الدنيوية بسبب فتنة عابرة، أو اتباع موهوم، أو سوء في التقدير والظن؟!

أليس من الأجدر بنا صيانة ديننا، وورعِنا، والتزامنا، عن كل ضررٍ أو فسادٍ قد يبرز له، أو انحراف قد يقع، أو تحدٍّ يؤدي بنا إلى الخسارة والبوار؟.

فما من شك، يا أخي وعزيزي، أن حسن الظن هو أفضل لآخرتنا، ولرضا الله سبحانه علينا. فهذا أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «أفضل الورعِ حسنُ الظنّ»[٣].

وجوب الحَمْل على الأحسن:

إن الالتزام بالتقوى لا يكون إلا بالاحتياط في الامتناع عن رجم الآخرين واتّهامهم، بما لم يعملوا، أو لم يعلموا به، فنحن نلاحظ من أنفسنا في بعض الأحيان أن أخاً عزيزاً مرَّ من أمامنا ولم يسلم علينا!!! فهل من حقّنا أن نتَّهمه بالتكبُّر مثلاً؟ أم يحرُمُ علينا ذلك ويجب أن نحمله على أيِّ محملٍ آخر ممكن أو معقول، كأن

---

(١) ميزان الحكمة: ح١١٢٣١، وغرر الحكم: ح٥٣٢٢.
(٢) ميزان الحكمة: ح١١٢٣٢، وغرر الحكم: ح٥٣٢٣.
(٣) ميزان الحكمة: ح١١٢٣٥، وغرر الحكم: ح٥٣١٩.

يكون ساهياً أو مهموماً أو منصرفاً في تفكيره إلى شيء آخر، ولم يلتفت إلينا؟!

ولعلّنا نسمع أحياناً صوت غناءٍ ينبعث من جهاز المذياع أي الراديو، من عند جيراننا.. فلا يجوز أن نحكم عليهم بالفسق أو المعصية... بل ربما كان المستمع يستمع إلى نشرة إخبارية ثم سهت عينه ونام، وبقي الجهاز مفتوحاً على كافة البرامج الأخرى، أو ربما أن الكهرباء قد قُطعت، ولم يلتفت الأخ المؤمن إلى إقفال مذياعه، وخرج من المنزل، ثم جاء التيار الكهربائي فجأة، وانطلق صوت الغِناء... بل ربما كان طفلٌ في المنزل يلعب بالمذياع، وقد أدار الإبرة إلى محطّة تذيع غناءً أو موسيقى... أو ربما أيضاً كانت هناك اعتبارات أخرى عديدة وشتَّى، قد لا نعرفها، فلا يجوز لنا أن نتَّهم أصحاب المنزل بأنهم يستمعون إلى الغناء المحرَّم.

وربما يغيب عنك أخوك في الله، أو يُخلِف موعداً مضروباً بينك وبينه، أو يضطر للتغيُّب لسبب ما... فلا يجوز أن تتَّهمه بسوء، فلعله مريض أو مضطر أو معذورٌ، أو يحتاج إلى مساعدتك.

وقد ترى أخاك في مكان معيَّن هو موضع ريبة وتهمة، فعليك أن تحمله على محمل حسن، كأن تقول: إنَّه اضطّر إلى ذلك، أو أُجبر عليه، أو كان ضائعاً، أو هو في ورطة، أو ربما كان قد انحرف، لا سمح الله، فهو بحاجة إلى موعظتك وإرشادك لا إلى لسانك المتَّهم.

ففي مثل هذه الحالات، ونظيرها، لا يجوز شرعاً اتّهام الآخرين، قبل أن ينجلي الأمر على حقيقته، وفي هذا الوقت نفتّش لهم عن عذر أو ترخيص. بل أكثر من ذلك، فإن لم نجد لهم عذراً

فعلينا التفتيش عن مخرجٍ مناسب لائق، لأخينا المتديّن، فقد ورد عن رسول الله ﷺ «اطلب لأخيك عذراً، فإن لم تجد له عذراً، فالتمس له عذراً»[١].

وفي بعض الأحيان نرى بعض الأشياء بأعيننا، أو نسمعها بآذاننا، وعلى الرغم من ذلك لا يجوز لنا البناء عليها، والحكم على ظاهرها، فأنت مثلاً، عندما ترى أخاً لك في الله يقترب من كوب من الخمر، فيُمسكه بيده ويشرب، فلا يجوز لك أيضاً هنا أن تتَّهمه بالمعصية، فلعله اعتقد أنَّه ماءٌ، وأراد أن يشرب منه. حتى ولو شممت من أخيك رائحة خمرٍ أيضاً، فلا يجوز لك أن تتّهمه، فلعل الخمرَ وقع عليه من طبقة عالية، أو انسكب على وجهه من دون قصد مثلاً، أو رماه به أحد الأشخاص، أو أنَّ سِكِّيراً قذفه بشيء منه، فليس لك أن تحكم عليه بالمعصية.

وهكذا فيما يتعلق بالأكل والشرب واللباس والأمكنة والكلمات والألفاظ... يجب أن تحمل على المحمل الحسن، فقد روي عن علي عليه السلام، في مصادر متعدِّدة ومعتبرة، أنَّه قال: «لا تظننّ بكلمة خرجت من أحد سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محتملاً»[٢].

حسن الظن راحةٌ للبال:

وإذا اتبعنا هذه الطريق، وخطونا على هذا السبيل، نصون أنفسنا ومجتمعنا من كثير من المشاكل المجانية، التي لا تجرُّ لنا إلا المتاعب والشحناء والبغضاء، ونصونُ أيضاً سمعة المؤمنين

---

(١) ميزان الحكمة: ح١١٢٢٨، وبحار الأنوار: ج١، ص٨٠٠، باب ٧.
(٢) ميزان الحكمة: ح١١٢٢٦، ووسائل الشيعة: ج١٢، ص٣٠٢، باب ١٦١، ح١٦٣٦١.

وكرامَتهم، ونحفظ نفوسنا من التلويث، ونؤدي حقَّ إخواننا المؤمنين، ولا نخسرهم، فهم المؤنسون لنا في هذه الدنيا الموحشة، وهم رفاقنا وجيراننا إن شاء الله في جنّات النعيم مع محمّد وآله الطاهرين.

ليس هذا فحسب، بل لقد روي عن علي عليه السلام في شأن توثيق المؤمن، وعدم سماع كلام الناس في اتّهامه، أنّه عليه السلام قال: «مَنْ عرفَ من أخيه، وثيقة دين، وسَدَاد طريق، فلا يسمعنَّ فيه أقاويل الناس، أما إنه قد يرمي الرامي، ويخطئ السهام»[١].

فالظن السيّئ الذي يوجه للمؤمن، محرمٌ شرعاً، لأنه افتراءٌ، ولأنه أيضاً، يوجب الأذية له، ولأنه كذب وحكم بلا علم... فلا نبالغ إذا قلنا، وكلُّنا يشهد على ذلك، أن أكثر ما يقال في مجتمع المؤمنين بقصد الإضرار بهم، وتشويه سمعتهم، إنما مصدره: سوء الظنِّ الذي نهى الله سبحانه عنه...

ولا ننسى أن من فعل هذا الحرام، ففِعله هذا، موجَّه إلى ربِّه الذي نهاه وليس موجّهاً فقط إلى العبد المؤمن، لأن العزة التي يملكها المؤمن هي من عزَّة الله تبارك وتعالى، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «من أساء بأخيه الظنّ فقد أساء بربّه، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾»[٢].

فالنداء الربَّانيُّ موجَّه للجميع، وبشكل خاص للمؤمنين الذين يجب أن يصونوا مجتمعهم من كل موبقة، وفي مقدمتها سوء الظنّ،

(١) ميزان الحكمة: ح١٢٢٧، وفي النهج: «وتخطئ»: خ١٤١.
(٢) ميزان الحكمة: ح١١٢٤٣.

الآخذ بالفتك بنا، والنيل من طهارتنا، وصفاء نيّتنا، وحسنِ توجّهنا إن شاء الله سبحانه، قال الله سبحانه في كتابه الخالد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1].

إلهي وربي «... فأيُّما عبدٍ من عبيدك، أو أمةٍ من إمائك، كانت له قِبَلي مَظْلمة، ظلمتها إياه في نفسه أو في عرضه أو في ماله أو في أهله وولدِه، أو غيبةٌ اغتبته بها، أو تحاملٌ عليه بميل أو هوى، أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية، غائباً كان أو شاهداً وحيّاً كان أو ميّتاً، فقَصُرَتْ يدي، وضاق وُسعي عن ردها إليه، والتحلّل منه، فأسألك يا من يملك الحاجات وهي مستجيبة لمشيئته، ومسرعة إلى إرادته أن تصلي على محمَّد وآل محمَّد وأن ترضيه عنِّي بما شئت، وتهب لي من عندك رحمةً إنه لا تنقصك المغفرة، ولا تضرُّك الموهبة يا أرحم الراحمين»[2].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) الصحيفة السجَّادية: من دعاء يوم الاثنين، انظر مصباح الكفعمي: ص١١٣، وبحار الأنوار: ج٨٧، ص١٧٦، باب ٩.

التواضع

من ميزات المؤمن عن غيره من بني البشر: التواضع. فالنبي والأئمة عليهم صلوات الله وسلامه تواضعوا للفقراء والمستضعفين فكانوا مثالاً يُحتذى.

التواضع في كل حركة:

فالتواضع صفة ملازمة للمؤمن تُشاركه في كثير من أعماله اليومية، من خلال إلقائه السلام على الآخرين، والتبسم في وجوههم، ومساعدتهم، ومرافقتهم، ومحادثتهم. بينما، وفي المقابل، نرى أن الكفار عبر التاريخ يتميزون عن غيرهم بصفة التكبُّر، والتفاخر والاعتماد على ما يملكون من قوَّة أو مال أو سلطان... حتى قد يصل التكبُّر بهم إلى أن يجحدوا بالخالق عزَّ وجلَّ، على الرغم من أنهم متيقنون منه سبحانه، كما حصل لأتباع فرعون، مما حكاه الله في كتابه المجيد حيث قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾[1].

فحقيقة الأمر إذاً، أنهم (أتباع فرعون) كانوا مؤمنين بالله سبحانه بل متيقنين، ولكنَّ العلوَّ والتكبُّر، جعلهم يجحدون، كما

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

جعل فرعون يدَّعي الربوبية لنفسه، كما ذكر تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فالتكبُّر صفة الجاحدين والمدَّعين، بينما التواضع صفة المؤمنين الذين سلموا تسليماً.

ماذا لو تُرك التواضع:

ولنا أن نتخيل لو أنَّ الناس تركوا التواضع، فماذا يا ترى يمكن أن يؤلِّف بين قلوبهم، ويحبِّب بين صدورهم... فتراهم عندئذٍ متنافرين، متقاتلين، يتباهون بالملابس والمال والمناصب، ويتفاخرون، بالبيوت والقصور والأملاك، ويتعالون بأمور تافهة لا قيمة معنوية لها، بل هي مظاهر تزول مع الزمن، وتُخطف مع الموت.

ولو تُرك التواضع، لأصبح من الصعوبة أن ترى صغيراً يحترم كبيراً، أو شابّاً يوقر شيخاً، أو ولداً يَبرُّ والداً، أو تلميذاً يُقدّر أستاذاً،... وعندها تُصبح المعيشة بين مجموعة من البشر، يظن كلُّ واحد منهم أنه إله فيما يملك، وعلى ما يسيطر، والعياذ بالله.

كل الأنبياء متواضعون:

ولأهمية صفة التواضع، جعل الله سبحانه كلَّ أنبيائه متواضعين، لا متكبّرين، يتقرّبون من المؤمنين ويتذلّلون بينهم، تأليفاً للقلوب، وترغيباً للهداية، حيث يصف أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، تواضع الأنبياء، ويعطي صورة عن ذلك من حياتهم اليومية،

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

فيقول: «فلو رخَّص الله في الكِبْرِ لأحد من عباده، لرخَّص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه كرَّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفَّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين»[١].

التواضع عبادة:

فهذه هي حالة الأنبياء الذين نقتدي بهم، ونسيرُ على نهجهم، حيث اعتبروا التواضع خير حسب، وهو بحدٍّ ذاته من أفضل العبادات، فقد كان رسول الله ﷺ يسأل أصحابه وكأني به ﷺ يريد أن يميّز التواضع عن غيره من العبادات: ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟ قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع[٢].

وهذا عليّ ﷺ يقول: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة»[٣].

وعندما يتحدث الأمير ﷺ عن صفات المتقين، لم يشأ أن يُتمَّ الصورة الكاملة عنهم، إلا بوصفهم بالتواضع حيث لا يكون الرجل تقيّاً وفي قلبه ذرة من تكبر، يقول ﷺ: «... منطِقهم الصواب، ومَلْبسهُم الاقتصاد، ومشيُهم التواضع...»[٤].

أمير المؤمنين (ع) وضيفه:

ويحدثنا الإمام العسكري، والد الإمام المهدي ﷺ، كما جاء

(١) نهج البلاغة: خ١٩٢ نقلاً عن ميزان الحكمة: ح٢١٥٢٧.
(٢) ميزان الحكمة: ح٢١٥٢٥، ومجموعة ورام: ج١، ص٢٠١.
(٣) ميزان الحكمة: ح٢١٥٢٦، وبحار الأنوار: ج٧٢، ص١١٩، باب ٥١.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

في كتاب بحار الأنوار، عن قصة تُبرز عظيم تواضع أمير المؤمنين عليه السلام بين إخوانه وشيعته، وكيف كان يُكرمُهُم ويخدِمهم ويتحبَّب إليهم، مع قدرته على ترك ذلك، وفي الرواية دعوة للشيعة لقضاء حوائج بعضهم، والوصية بالتواضع، وأداءِ الحقوق.

وورد في رواية عن الإمام العسكري عليه السلام قوله: «أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدُّهم قضاءً لها، أعظمهم عند الله شأناً، ومَنْ تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصدِّيقين، ومن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، حقاً، ولقد ورد على أمير المؤمنين أخوان له مؤمنان: أبٌ وابن، فقام إليهما وأكرمهما، وأجلسهما في صدر مجلسه، وجلس بين يديْهما، ثم أمر بطعامٍ فأُحضر، فأكلا معه...»[1].

ويتابع الإمام العسكريُّ في روايته الطويلة عن تواضع أمير المؤمنين عليه السلام ليذكر أن قنبر خادم الأمير، جاء بإبريق الماء ليصبّ على يدِ الضيف ليغسل يديه بعد انتهاء الطعام، فوثب أميرُ المؤمنين عليه السلام فأخذ الإبريق تواضعاً أيضاً، ليصبَّ بنفسه على يدِ ضيفه العزيز، بالرغم من علوّ شأنه، ورفعته عليه السلام، مع أنه كان يستطيع أن يترك المهمة ويوكلها إلى خادمه.

وامتنع الضيف عن الأمير عليه السلام خجلاً، ورفض بشتَّى الوسائل أن يصبَّ على يديه، وقال الأمير عليه السلام: الله يراني وأنت تصب على يدي؟ فأجابه الأمير بثقة وتواضع وبرزانة المؤمنِ الذي جمع الهيبة والوقار إلى شخصه، وقال باطمئنان لضيفه: اقعد واغسِل، فإن الله

---

(١) ميزان الحكمة: ح٢١٥٣٢، وبحار الأنوار: ج٤١، ص٥٥، باب ١٠٥.

عزَّ وجلَّ يراك وأخاك (ويعني نفسه عليه السلام) الذي لا يتميّز منك، ولا يتفضَّل عليك، يخدِمُك، يريد بذلك خدمته في الجنَّة، مثل عشرةِ أضعاف عدد أهل الدنيا.

ثم، وفي ختام الرواية، يقول الحسن بن عليٍّ العسكري عليه السلام: «فمن اتَّبع عليّاً عليه السلام على ذلك، فهو الشيعيُّ حقّاً»[(١)].

فلننظر بصدق نحن المؤمنين، إلى مولانا ومقتدانا علي عليه السلام، وكيف كان مع علوّ شأنه، وعظيم قدْرِه، وجلالة موقعه، يتقرب إلى أصحابه بخدمتهم، والتحبّب إليهم واستضافتهم والقيام بواجبات الزيارة والضيافة والإطعام كاملة، بل حتى كان يصبّ الماء على أيديهم بعد فراغهم من الطعام، حتى كانوا يخجلون من ذلك.

لننظر نحن بعين الصدق والأمانة والموعظة، إلى مثل هذه القصص والروايات، لنتعلم منها ونطبّق في حياتنا اليومية، لا لمجرد الأخذ والاعتراف، فنحمل لا سمح الله، علماً لا ينفع، إذ التواضع المرتجى أن ينتشر بيننا، هو أن لا نستثقل خدمة أخ، أو نأنف من ذلك، أو نشعر أننا أفضل منه عند الله سبحانه.

أمثلة على التواضع:

فجميل لك يا أخي المؤمن، أن تأتي بكوب الشاي إلى أخيك، من غير استثقال لذلك، وجميل لك أن تساعده في حملِ أغراضه، أو نقلِ أثاثه، وأنت مبتسم مستبشر، وجميل لك أن تُحضِر له حاجته التي يريدها، أو أن تساعده في تحقيقها.

---

(١) ميزان الحكمة: ٢١٥٣٢، وبحار الأنوار: ج٤١، ص٥٥، باب ١٠٥.

كذلك، من المناسب أن تجلس دون المجلس الذي تستحق، ولا تشعر أن في ذلك منقصة لك أو إهانة لا سمح الله، وأن تسلم على كل من لقيت، صغيراً كان أو كبيراً، وإن كان دونك من ناحية الاعتبارات الاجتماعية، أو أن تتجاوز عمَّن أساء إليك أو حاول أن يطيل في منازعتك وجدالك... فعفوك عنه، وسكوتك هو من التواضع المستحب والراجح شرعاً، بالرغم من قدرتك على الرد أو إلقاء الحجَّة أو تقديم البرهان.

ومن أجمل حالات التواضع أن تساوي نفسك بالناس في كل الأمور، فلا يجدون عندك درجة أو صفة أعلى، أو توحي بالتكبُّر، أو التفاخر عليهم... فأسمى حالة للمتواضع هي أن يكون قادراً على الرِّفْعة ولكنَّه يتخلى عن ذلك تواضعاً، ليقيس نفسه بضَعَفَةِ الناس وأهلِ الفاقة منهم، فقد روي عن علي عليه السلام: «التواضع مع الرّفعة، كالعفو مع القدرة»[1].

وما من شك أنَّ للتواضع نتائج عديدة منها: أنه يكسب الإنسان محبَّة الناس وعطفهم ومساعدتهم، فيحصل بينهم وبينه إلفة ومحبَّة حيث لا يجدون فرقاً بينهم وبينه، بينما التكبُّر يؤدي إلى بُعْدِ الناس عن بعضهم، كما يؤدي إلى التنافر والتقاتل والتدافع بين أفراد المجتمع.

شخصية المتواضع:

والمتواضع عادةً ما يكون راجح العقل، وإن لم يكن على جانب كبير من العلم، لأنه يجالس الناس ويجالسونه، ويستمع إليهم ويختلط بهم ويكتسب منهم ويقصد المحاضرات وأماكن الخطابة،

---

(١) ميزان الحكمة: ح٢١٥٤٢، وغرر الحكم: ح٥١٣٦.

ويسعى للمطالعة والثقافة والازدياد، أما المتكبِّر، فيعتبر نفسه أنَّه أرفع وأجلُّ من أن يُعلَّم، بل يرى الآخرين دونه في العلم، وليسوا أهلاً ليستمع إليهم، أو أنهم أقلُّ مستوى منه من الناحية العلمية أو الاجتماعية أو المالية، فينكفئ على نفسه، وتضمحل أفكاره بعد أن تنقص رويداً رويداً.

فما أجمل المؤمن أو المؤمنة، مهما بلغ واحدهم من الدرجات العلمية، أن يسألَ ويستفهم ويستفسر عمَّا يجهل، أو عمَّا يدور في ذهنه من أمور لا يجد لها حلاً شافياً وافياً.

وهكذا، ومن خلال الواقع الاجتماعي الذي نعيشه نلاحظ رجاحة عقل المتواضع، وتبدو فطنته وذكاؤه بشكل واضح، وأنه يفهم نواميس وقوانين الحياة، على خلاف المتكبّر المتعجرف، الذي يظن أن رأيه أفضل من رأي غيره، وهذا في أكثر الأحيان مخالف للواقع، وحتى لو افترضنا أن لديه شيئاً من العلم إلا أنه لا يجيد استعماله أو الخوض به.

روى الكاظم عليه السلام: «إن لقمان قال لابنه تواضع للحق تكن أعقل الناس»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام يُصور الأمر تصويراً معبِّراً فيقول: «إنَّ الزرع ينبت في السهل، ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في القلب المتكبر الجبَّار، لأن الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر آلة الجهل...»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: ح٢١٥٦٥، ومشكاة الأنوار: ص٢٢٦.
(٢) ميزان الحكمة: ح٢١٥٦٦، وبحار الأنوار، ج١، ص١٥٣، باب ٤.

فلنتذكر يا أخي المؤمن، يا حبيب الله، أن التكبر يُبعد عن الله، والمتكبر بعيد عن الله، وأن التواضع يُقرِّب من الله سبحانه، والمتواضع قريب من الله.

ولنتذكر أيضاً أن الأنبياء والأولياء والأوصياء لم يكن أيٌّ واحدٍ منهم أبداً متكبّراً، بل اشتُهروا بالتواضع والأخلاق الكريمة الحسنة، ومشاركتهم للمستضعفين في سائر أوضاعهم المعيشية. فكانوا يجالسونهم، ويؤاكلونهم، ويزورونهم في بيوتهم...

وهكذا العلماء الحقيقيون، والزهّاد الصادقون، والعبّاد المقرّبون...

فلتكن صور هؤلاء حاضرة في ذهننا وتصوّرنا دائماً، خاصة عندما نمشي في الأسواق ونحادث الناس، ونصادف المؤمنين، أو عندما نجتمع في جلسة عمل أو جلسةٍ عامةٍ في مسجدٍ أو حسينية.

وليكن شعارنا التواضع، لأنه يُقرّب إلى الله سبحانه، ولنتذكر دائماً قول رسول الله ﷺ في وصيّته لعلي عليه السلام: «يا علي! والله لو أن المتواضع في قعر بئرٍ لبعث الله عزَّ وجلَّ إليه ريحاً يرفعه فوق الأخيار في دولة الأشرار»[1].

«... اللهم صلِّ على محمَّد وآله، ولا ترفعني في الناس درجةً إلا حطَطْتني عند نفسي مثلها، ولا تُحْدِث لي عزّاً ظاهراً، إلا أحدثت لي ذِلَّة باطنة عند نفسي بقدَرها...»[2].

---

(١) ميزان الحكمة: ح٢١٥٨٠، وبحار الأنوار: ج٧٤، ص٥٣، باب ٣.

(٢) الصحيفة السجَّادية: من دعاء مكارم الأخلاق، ص٩٢، الدعاء ٢٠.

تواضع الأنبياء عليهم السلام

لقد خيَّر الله نبيَّه بين أن يكون عبداً رسولاً، أو مَلكاً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً تواضعاً لله سبحانه، وهكذا فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه هم أكثر الناس تواضعاً وهم سادة البشر، فقد تميَّزوا عن غيرهم من الملوك والسلاطين، بتواضعهم واختلاطهم مع كافة الطبقات الاجتماعية، بحيث لم يذكر التاريخ لنا حادثة واحدة فيها تكبّرٌ أو ترفُّع من نبي من أنبياء الله سبحانه تجاه فرد من بني البشر.

كيف كانت سيرة الأنبياء (ع):

والسيرة الذاتية والشخصية للأنبياء عليهم السلام تُظهر كم كانوا عاديين، في لباسهم ومأكلهم، وأثاثِ منزلهم، وأملاكهم، حيث لم يترفَّعوا ولم يتكبّروا على الناس، بل كانوا المُعلِّمين لهم لضروب الزهد والتقشّف والتواضع والانصراف عن الدنيا، بمادياتها ومناصبها.

ولو نظرنا نظرة شاملة إلى سِيَر الأنبياء عليهم السلام لأُصبنا بالدهشة من طريقة عيشهم... فالروايات متواترة أنهم كانوا يأكلون ما يأكله سائر الناس، ويجلسون جِلسة العبيد على الأرض، وكانوا يجيبون دعوات الفقراء إلى موائدهم المختصرة، وكانوا يأتون بالفقراء إلى منازلهم، ويُصرُّون على الجلوس معهم، وكانوا يركبون على الحمار العاري،

كما كان عامَّة الفقراء في الزمن السالف، وكانوا أيضاً يحلبون الشاة، ويلبسون الثياب العادية، ويُسلمون على الأطفال الصغار، تأليفاً لقلوبهم، وجذباً لسلوكهم، ولا يتذمرون ولا يتأففون من أي عمل أو تقصير وقع في حقّهم... وكانوا أيضاً عليهم السلام يخدمون أصحابهم وحوارييهم ويتواضعون لهم، ليعلموهم التواضع والانصياع والتذلّل بين المؤمنين.

هذا نبي الله موسى (ع):

فنبي الله موسى عليه السلام كان فقيراً متواضعاً، وكان يخجل من ربّه سبحانه وتعالى وينظر إلى عظيم عطائه ومنّه عليه، فيكتفي بتناول بعض الخضروات والمزروعات المتفرّقة، حتى ظهر لونها من خلال بطنه عليه السلام، فكان يسألُ ربّه أن يرزقه الخبز فقط ليتقوَّت به وهو الذي قال الله تعالى رواية على لسانه عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[1].

ويشرح أمير المؤمنين عليه السلام حال موسى عليه السلام قائلاً: «والله ما سأله إلا خُبْزاً يأكُلُه، لأنه كان يأكل بَقْلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفيف صِفاق بطنه، لِهُزالِهِ وتشذُّب لحمه»[2].

وهذا داوود (ع):

وأما داود عليه السلام فكان يشتغل، وينسج بيديه المباركتين، ثم يبيع ما صنع ليشتري خبزاً من الشعير، ويُشبع بطنه، بالرغم من عظيم قدره عند الله سبحانه، إذ يقول أمير المؤمنين عليه السلام عنه في نهج

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٤.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

البلاغة: «إنه صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنَّة، وكان ينسج الثياب بيده، ويقول لجلسائه، أيُّكم يكفيني بَيْعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها».

وهذا عيسى ابن مريم (ع):

وهذا عيسى عليه السلام كان نموذجاً فريداً في الزّهد والتوكّل والتواضع وقِصر الأمل والشوق إلى ربّه سبحانه... ونحن بحاجة إلى دراسة خاصة حول حياته واختلاطه مع المستضعفين والمنكوبين وأصحاب الأمراض... كما نحن بحاجة إلى تصفية وتشذيب للأفكار التي أُدخلت على سيرته عليه السلام بقصد تشويهها، أو تحريفها ممَّن يدَّعون الانتماء له.

لقد كان عليه السلام متواضعاً لا يطلب إلا طعام الفقراء، والطعام العادي المتوفِّر لكل الناس، كالعدس والفول، ولا يتعب كثيراً في تنميقه وتزويقه، بل يكتفي بالميسور منه ليتقوَّى به على العبادة والطاعة، والقيام بواجب الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كان طعامُ عيسى الباقلاَّ[(١)] حتى رُفع، ولم يأكل عيسى شيئاً غيَّرته النار حتى رُفع»[(٢)].

وقال صلى الله عليه وآله: «عليكم بالعدس فإنه مبارك مقدَّس يرقق القلب، ويكثر الدمعة، وقد بارك فيه سبعون نبيّاً آخرهم عيسى ابن مريم عليهما السلام»[(٣)].

---

(١) يعني الفول

(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٤١٥، وبحار الأنوار، ج٦٣، ص٢٦٦، باب ٦.

(٣) ميزان الحكمة: ح١٩٤١٤، ووسائل الشيعة: ج٢٥، ص٢٦، باب ١٠

كذلك كان لعيسى عليه السلام نمطٌ خاص في معيشته، حيث لا كلفة ولا تصنُّع بل زهدٌ وتقشفٌ وخدمةٌ للنفس بنفسه مستعيناً بما خلق الله سبحانه من أشياء، ليسخرها في خدمته، وكان قنوعاً مكتفياً بذلك وكان يشعر بالغِنى بالله سبحانه واستغنائه عن كل ما عداه جلَّ وعلا.

وروي في إرشاد القلوب وبحار الأنوار، عن عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليه السلام، قال: «خادمي يداي، ودابتي رجلاي، وفراشي الأرض، ووسادي الحجر، ودفئي في الشتاء مشارق الأرض... أبيتُ ليس لي شيء، وأُصبح وليس لي شيءٌ، وليس على وجه الأرض أحدٌ أغنى منّي»[١].

أجل، وكان عليه السلام مثال التوكّل على الله تعالى، قد أحسن تفويض كلِّ أموره إليه، لا يطمع في شأن من شؤون الدنيا وزخارفها، قريب من الطبيعة وأجوائها، يَسْترزِق ما يجد فيها، ويستغني به عن غيره، حتى لقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «يا أمَّ أيمن! أما علمتِ أنَّ أخي عيسى كان لا يخبئ عشاءً لغداءٍ، ولا غداءً لعشاءٍ؟ يأكل من ورق الشجر، ويشرب من ماء المطر، يلبس المُسوح، ويبيت حيث يمسي، ويقول: يأتي كلُّ يومٍ برزقه»[٢].

ويصور أمير المؤمنين عليه السلام حالة التواضع عند عيسى ابن مريم عليهما السلام تصويراً أكثر وضوحاً وتفصيلاً، وذلك في معرض حديثه عن تواضع الأنبياء وزهدهم، فيقول عليه السلام: «... فلقد كان يتوسّدُ الحَجَر، ويلبس الخشِن، ويأكُل الجشِبَ، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه

---

(١) نقلاً عن ميزان الحكمة: ح١٩٤١٣، وبحار الأنوار: ج١٤، ص٢٣٩، باب ١٨.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٤١٦.

ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتِنه، ولا ولدٌ يحْزنه، ولا مالٌ يلفِته، ولا طمع يُذِلّه، دابته رجلاه، وخادمه يداه»[١].

وهذا خاتم الأنبياء وسيّد البشر (ص):

أما النبي المصطفى ﷺ فكان له شأن آخر، وجوٌّ آخر من هذه الناحية... حتى أنَّ جبرائيل عليه السلام عرض عليه مفاتيح الأرض ثلاث مرَّات، وكان دائماً يختار التواضع، وكان فقيراً، ولا يخجل لذلك، وعندما عُرِض عليه أن يكون عبداً أو ملِكاً، مع احتفاظه بالنُّبوَّة، كان يختار أن يكون نبيّاً عبداً، ليكون أقرب للفطرة البشرية ويبتعد عن روح التكبّر وعبادة أصنام الذات والشخص.

وكان ﷺ يأكل على الأرض، ويقعد على الأرض، ويُجيب دعوة الفقراء، ولا يُفرِّق بين الناس في عُنْصرهم وطبقتهم،... كما كان ﷺ إذا وجد تمرة ملقاة على الطريق يأخذها ويضعها في فمه... طويل البال على من يؤذيه بثقل دمه، أو يتصرف بغير اللائق في حضرته ﷺ، يجالس الفقراء، ويُحادثهم....

وقد روي عن الباقر عليه السلام أنَّه ﷺ كان يقول: «خمس لا أدعهُنَّ حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي الحمار مؤكَّفاً، وحلبي العنز بيدي، ولِبْس الصوف، والتسليم على الصبيان، لتكون سنَّةً من بعدي»[٢].

لقد كان ﷺ يجالس أصحابه كأحدهم، دون تمييز في المكان أو اللباس... ودون أن يتخذ لنفسه شعاراً أو تاجاً أو كرسيّاً ليميز

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٦٥٧، ووسائل الشيعة: ج١٢، ص٦٢، باب ٣٥.

نفسه عن الآخرين، إلى درجة أن الزائر لم يكن يعرف من هو النبي، إذا كان ﷺ مع أصحابه... حتى اضطر الصحابة في النهاية أن يبنوا له مَصْطَبة من الطين ليجلس عليها، فيعرفه الغريب من باقي أصحابه وزوَّاره[١].

وكان أَنَس بن مالك قد خدم الرسول ﷺ عشر سنين، فلم يقل له ولو مرةً واحدةً: أفّاً، قط، أو لِمَ فعلت كذا؟ أو هلاً فعلت كذا[٢]...

وإضافة لأعماله المتقدمة الجميلة، وكلُّ أعماله جميلة وأهلٌ للاقتداء والتأسي... كان ﷺ يرقع ثوبه، ويُصلح نعله... ويرفض أن يكون في بيته قطعة أثاث ملفتة للنظر لأنها تُذكر بالدنيا وتجعله ينصرف عن التوجه إلى الله سبحانه...

ويُحدثنا أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، في نص جامع عن صفات رسول الله ﷺ فيقول فيما يقول: «... قَضَمَ الدنيا قَضْماً[٣]، ولم يُعِرْها طَرْفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً[٤] وأخمصهم في الدنيا بطناً، عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أنَّ الله سبحانه، أبغض شيئاً فأبغضه وحقَّر شيئاً فحقَّره، وصغَّر شيئاً فصغَّره... ولقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلِس جِلْسة العبدِ، ويخصِف بيده نعلَه، ويرقَع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويُرْدف خلفه، ويكون السِّتْر على باب بيته فتكون فيه التصاوير

(١) ميزان الحكمة: ح١٩٦٦١.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٩٦٦٥، بتصرف.
(٣) أي تناول منها قليلاً بأطراف أسنانه ولم يملأ فمه الشريف منها.
(٤) إشارة إلى هزاله وجوعه.

فيقول: يا فلانة، غيِّبيه عنِّي، فإذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذِكرها من نفسه، وأحبَّ أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً[١]...».

ويتابع الأمير عليه السلام شارحاً تواضع وزهد رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: «ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ما يدلُّك على مساوئ الدنيا وعيوبها: إذ جاع فيها مع خاصته[٢]... فلينظر ناظر بعقله: أكرم الله محمَّداً بذلك أم أهانه؟! فإن قال أهانه، فقد كَذَب... وإن قال: أكرَمَه، فليعلم أنَّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدُّنيا له...».

وعن وضع الرسول المعيشي يتابع الأمير عليه السلام واصفاً فيقول: «خرج من الدُّنيا خميصاً[٣]، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة الله عندنا حيث أنعم علينا به سلفاً نتَّبعه...»[٤].

فيا أخي المؤمن، ويا عزيزي المسافر إلى الله سبحانه، ها قد استمعت لمقتطفات متفرقة، ورأيت صوراً متعددة عن تواضع أنبياء الله عليهم السلام وطرق معيشتهم، وهم المقرَّبون عند الله سبحانه، وأصحابُ المنزلة العالية، والدرجة الرفيعة... فهل نقتدي بهم، وهل نقتفي آثارهم ونتواضع كما تواضعوا عليهم السلام وتبقى هذه الصورة منطبعة في أذهاننا؟

«... فلو رخَّص الله في الكِبْرِ لأحدٍ من عباده، لرخَّص فيه

---

(١) الرياش: الفاخر من اللباس والأثاث.
(٢) أي مع خصوصية ورفعة شأنه عند الله تعالى.
(٣) أي خالي البطن.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

لخاصَّة أنبيائه وأوليائه، ولكنَّه سبحانه كرَّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفَّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا قوماً مستضعفين، قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمَجْهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخَضَهم بالمكاره... فإنَّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم، بأوليائه، المستضعفين في أعينهم...»[1].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

حب الرئاسة

الحمد لله رب العالمين، ملك الملوك، الذي لا يدوم إلاَّ ملكه، ولا يستمر إلاَّ سلطانه، والذي بعث أنبياءه الذين علمونا أن من طلب الرئاسة للدنيا هلك، وأنَّ حب الجاه والرئاسة والزعامة، صفات معروفة في تاريخ الإنسان والبشرية، فما من مجتمع أو كيان منذ فجر التاريخ وإلى الآن، إلاَّ وكان على رأسه مَلِكٌ، أو سلطان، أو حاكم، يتولى أمور الناس ويسوسهم بسياسته، ويسودهم بقوَّته.

حبّ الرئاسة وباء منتشر:

وفي كل الأمم والمجتمعات الحاضرة والسالفة، نرى تنافساً بين أفراد المجتمع على استلام السلطة، وتبوّء سدَّة الحكم، والاستيلاء على مركز الرئاسة... فكل إنسانٍ بطبعه وبفطرته يميل للسيطرة والهيمنة والتسلّح بالقوَّة، وإصدار الأوامر إلى من دونه، ويسعى ليُظهر تميُّزه عنهم، وتفوَّقه ورِفعته.

ومن أجل الوصول إلى السلطة، واستلامها، وقعت خلافات كثيرة عبر التاريخ بين الأفراد والعائلات والقبائل والأحزاب، وأُزهق ما لا يُحصى من الأرواح، وأتلف ما لا يعد من الأموال والأملاك، من أجل الوصول إلى منصب معيَّن.

حتى أقرب المقرَّبين:

والتاريخ القديم منه والحديث، متخمٌ بالأحداث والوقائع حول التنافس على استلام السلطة، حتى بين الأصدقاء والرفاق وأبناء الحزب الواحد، بل حتى بين أبناء العائلة الواحدة،... وبين الأخ وأخيه في الأسرة الواحدة، بل بين الأب وابنه[١]، حيث ينشأ الخلاف وتنشب الحروب والمعارك المأساوية، فقط، من أجل استلام السلطة أو الظفر بتاج الملك، الذي، وفي أحسن الأحوال، لا يدوم سوى عقود قليلة من الزمن، مليئة بالمخاطر والأهوال، والتأرجح بين الموت والحياة، وبين النجاة والهلاك، ويتخللها طول المنافسات، بين الطامحين للسلطة، وأصحاب الوزارات، والمقرّبين للعتبات الحاكمة...

ثم يعقُب كلّ ذلك سرعة انقضاء الملك،... وسبحان الذي يُهلك ملوكاً ويستخلف آخرين، وسبحان الله الذي لا يدوم ملكٌ غير ملكه،... وهو سبحانه ملك الملوك حيث يموت ملوك الدُّنيا وهو حي لا يموت.

إذاً، فالخلاف والشجار للوصول إلى السلطة يشيع بين كلِّ طبقات الناس، كلٌّ بحسب إمكانياته وطموحه وساحة تحركه، فبعضهم يتنافسون للوصول إلى منصب وزاري أو نيابي أو إداري... وبعضهم يعملون للوصول إلى منصب عسكري أو دبلوماسي أو سياسي... وبعضهم يعمل ليكون رئيس بلدية أو مختار قريةٍ أو عضواً في لجنة الحي...

---

(١) ورد عن المأمون أنَّه قال لولده: إنَّ الملك عقيم، ولو نازعتني الملك لأخذت الذي فيه عيناك.

لماذا المؤمنون أيضاً:

وهذه الحالة التنافسية، وللأسف الشديد، تشيع بين المؤمنين أيضاً، حتى الذين يحسن الظن بهم، فتراهم يعملون ويتنافسون، وأحياناً يتشاجرون من أجل استلام مسؤولية في مركز اجتماعي أو عسكري، أو سياسي، أو للفوز بعضوية في لجنة المسجد أو جمعية خيرية أو عضوية بلدية بقصد الاستعلاء وحبِّ المفاخرة والشهرة.

إنَّ هذا التشاجر بين المتديّنين، للوصول إلى منصب، ليس من صفة المؤمنين، لأن وجودهم ينبغي أن يكون لرضا الله سبحانه، وليس للتمتع بمناصب الدنيا، . . . إنّما السباق يكون في أمور الآخرة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وليتسابق المتسابقون، وليفز الفائزون.

أمّا التقاتل لأمور الدنيا، فهو من صفات أهل الدنيا لا أهل الآخرة، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

دعوتنا إلى الله عز وجل وليس الشخص:

فعملك يا أخي المؤمن، إنَّما هو لإشاعة دين الله سبحانه في الأرض، وتعبيد الناس له، وخشيتهم منه، والطاعة له، والتوجّه إليه، والإخلاص للحضرة القدسية، والمقام الربَّاني. . . فليس المهم أن يتبعنا الناس أو يرضوا عنَّا، لأنَّ هذه الطاعة وهذا الرِّضا إن لم يكونا في طاعة الله سبحانه وابتغاء مرضاته يؤدّيان إلى البوار والهلاك. . . وليس المهم أيضاً رضى الناس عنَّا، إن كان هذا الرِّضا نابعاً من

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

سكوتنا عن مُنكرهم، أو السماح لهم باتِّباع شهواتهم، أو التواطؤ معهم ليعلنوا تأييدهم لنا، أو لمساعدتنا مادياً أو معنوياً... إذ كل هذا يُعدّ من الخيانة... وإنَّما هدف المؤمن الصادق، هو رضا الله سبحانه، إن كان ذلك من خلال رئاسة أو وظيفة أو عمل عادي، أو التضحية بالجاه والمال والمنصب وحبِّ الناس ورضى الآخرين والمقربين.

فقد ورد فيما ناجى به الله تعالى موسى عليه السلام: «... لا تغبطنَّ أحداً برضى الناس عنه، حتى تعلم أنَّ الله راضٍ عنه، ولا تغبِطنَّ أحداً بطاعة الناس له، فإنَّ طاعة الناس واتباعهم إيَّاه على غير الحق، هلاك له ولمن تبعه»[1].

الفائز مَنْ فاز برضا الله سبحانه:

إنَّ حُبّ الرئاسة لذاته ليس طاعةً لله أو عبادة تستحق الأجر، أو تقرُّباً يستحق الثواب، أو عملاً قصده العاقل... فالرئيس والفائز الحقيقي، هو الذي فاز برضى الله سبحانه، وكان رئيس نفسهِ، أي قامعاً لهواه، مقيِّداً لشهوته، حابساً لنزوته، صائناً لطاعته، زاهداً بالفانيات، طامعاً بالباقيات الصالحات، راغباً بالآخرة، مشتاقاً إلى الله، مسافراً إلى محمَّد وآله صلى الله عليه وآله... فهذا هو الرئيس حقاً، كما ورد في الزبور: «ليست الرئاسة رئاسة الملك، إنَّما الرئاسة رئاسة الآخرة»[2].

حبّ الرئاسة تهوُّر وخوض في الذُمم:

ونلاحظ أنَّ آفات حبِّ الرئاسة وطلبها كثيرةٌ، لا تنحصر بفرد

---

(١) ميزان الحكمة: ح٦٧١٢، وبحار الأنوار: ج١٣، ص٣٥٣، باب ١١.
(٢) نقلاً عن ميزان الحكمة: ح٦٧١٣، وبحار الأنوار: ج١٤، ص٤٧، باب ٣.

معين فقط، بل تؤثّر في المجتمع ككل: في تماسكه وأمنه وتطوره ومستقبله، حيث تخضع هذه الأمور وأمورٌ حيوية أخرى للنتائج المترتبة على الصراع الدائر بين المتنافسين، للوصول إلى الرئاسة والزعامة، إذ أنَّ أكثر الضحايا يكونون من المستضعفين والفقراء الذين لا ناقة لهم ولا جمل، بكل ما يجري، بينما تكون الأموال والسلطة والشرف لأفرادٍ محدودين، هم الذين استطاعوا أن يستلموا السلطة ويتربعوا على كرسيِّ الحكم.

من هنا، فإنَّ المحتاط في أمر دينه، هو الذي لا يدخل في معركة تُستباح فيها الدماء والأعراض، من أجل أن يفوز بمنصب أو بعضوية قيادة، حبّاً بالرئاسة وابتغاءً للشهرة... فالطامحون للزعامة دائماً، وكما نلاحظ، يتخطوْن كثيراً من الأحكام الشرعية وهم يعلمون ذلك، أو يؤوِّلون ذلك أي يجدون له ما يُسمَّى بالمخرج الشرعي، فتزهق النُّفوس، وتهرق الدماء، وتتلف الأموال، وتستباح الأملاك، للوصول إلى السلطة السياسية أو الحزبية أو العسكرية أو للمحافظة على منصب من المناصب، دون وجه حق.

فكم من المعارك التي وقعت في السنوات الأخيرة، وتقع الآن، باسم الوطن أو الإنسانية أو الدين أو الشعب،... والخلفية الحقيقية هي بقاء الزعيم أو الرئيس في الحكم.

وكم من الحركات والانشقاقات الحزبية أو الحكومية وقعت، وتقع اليوم، لكي يرتفع إنسان مطمور، أو يَبْرز من كان مخفياً.

وكم من الأشخاص غيَّروا قناعاتهم وبدَّلوا أفكارهم، ومدحوا ما كان مذموماً في أمسهم، وذمّوا ما كان ممدوحاً عندهم، وقرَّبوا

البعيد، وبعَّدوا القريب، للوصول إلى السلطة، أو حبّاً في الذكر أو الشهرة.

وكم وكم من الفضائح السياسية والحزبية والمخابراتية، ظهرت بعد سنين متطاولة، لتكشف الكثير من المعارك والقرارات، والتصفيات والاغتيالات، والتفجيرات والاعتقالات، بسبب خوف من شخص على المترئِّس، أو حذراً منه في أي حركة مناهضة أو معارضة.

وكم من المذابح جرت وكم من القرى التي دُمّرت وأُبيد أهلها بكاملهم، وأرهق العباد والبلاد، من أجل دوام صاحب السيادة والفخامة والجلالة والسمو والمعالي.

أمّا بيع الأوطان، وخيانة الشعوب، والتسبُّب في الحروب والانقسامات فحدِّث ولا حرج، فحيثما تلتفت في أنحاء التاريخ والزمان، أو بقاع الأرض، تجد له مثالاً وأكثر.

أين الدين فيمن يسعَوْن للرئاسة:

وفي خضمِّ هذه الأحوال، هل هناك بعد مجالٌ للتكلم عن الدين والورع والتقوى والحكم الشرعي. وإذا ما قرَّر ضالٌ أن يصل إلى مركز سياسي أو عسكري، مهما كلَّف الأمر، فهل هناك مجال للموعظة أو النصيحة أو الإرشاد؟!

عندها، يخسر الإنسان دينه وآخرته، وما تَلْبث الدنيا أيضاً أن تلحق بهما عاجلاً. فيكون، مثل طلبه للرئاسة كمثل من جعل مع غنمه ذئبين ضاريين، أحدهما عن يمين القطيع والآخر عن يساره، ثم ينام عنهما، فيُهْلك قطيعه في غفلته وأحلامه، كما ذكر الإمام

الباقر عليه السلام حيث قال: «ما ذئبان ضاريان في غنم ليس لها راعٍ، هذا في أولها وهذا في آخرها، بأسرع فيها من حب المال والشرف في دين المؤمن»[(١)].

وورد في رواية أخرى عنه عليه السلام في من يحبّ الرئاسة، قال: «ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرق رُعاؤها، بأضرَّ في دين المسلم من طلب الرئاسة»[(٢)].

إنَّ الخطر على المسلم في تديّنه، يكون في جعل الرئاسة قِبْلة يتجه إليها، وهدفاً يسعى إلى بلوغه، بصرف النظر عن الأسلوب وحلاله وحرامه، حيث يصبح مشغول البال، منصرف الفكر، غارقاً في تأملاته وتخطيطاته للوصول إلى طموحاته،... فتراه يحلم في المعقول وغير المعقول، وكلَّما اقترب من هدفه قليلاً بل من أهدافه، كلَّما ازداد عُجباً بنفسه، وطمعاً، وتعدّياً، ووحشية وخروجاً عن صفات العبودية والإنسانية.

وكثيراً ما قد يكون التفكير المباح، أو مجرد التخيّل، مؤدّياً إلى الانحراف ومقرِّباً إلى التهاون بالأحكام والخُلُق للوصول إلى الملك أو التاج، فقد ورد عن الصادق عليه السلام في كتاب الكافي الشريف، قوله: «ملعون من ترأس، ملعون من همَّ بها، ملعون من حدَّث بها نفسه»[(٣)].

فنعوذ بالله وبه نستعين، من خطر الانحراف وحبِّ الرئاسة

---

(١) ميزان الحكمة: ح٦٧١٥، والكافي: ج٢، ص٣١٥، ح٣.
(٢) ميزان الحكمة: ح٦٧١٤، ووسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٥٠، باب ٥.
(٣) الكافي: ص٢٩٨، ح٤.

وحبّ الدُّنيا، والشهوة المؤدّية إلى الحرام، وإلى غضب العزيز الجبَّار سبحانه وتعالى.

أولئك الذين يضلُّون ثم يُضلون الآخرين بضلالتهم، وتُصبح أمامهم أبواب المعاصي مفتوحةً على مصراعيها، حيث إن طرق الضلالة كثيرة، وسُبُلها عديدة، بينما سبيل الله واحدةٌ كما هو واحد سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١].

شهوة الرئاسة سُكْرٌ:

فلنحذر من شهوة الرئاسة وسكرتها... ولنحذر من شهوة السلطة والملك، وتقليد أهل الدنيا، خاصةً في مؤسساتنا الإسلامية، فلا نتنافس على مركزٍ أو منصبٍ، إنَّما هي مسؤولية شرعية لمن استطاع أن يقوم بها،... ومن لم يستطع فَلْيَتَنَحَّ من تلقاء نفسه، ومن استطاع لها، فليتصد من تلقاء نفسه، دون أن تشوب نيته شائبة.

وأما إذا وجد في نفسه نيّة سوء، فالاحتياط والتورع في دينه يُلزمه بالتخلي والتجنّب. حيث نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إيَّاكم وهؤلاء الرؤساء الذين يتراءسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجلٍ إلاَّ هلك وأهلك»[٢].

ويشتد الخطر، إذا كان الخُلَّصُ من المؤمنين يسعون لطلب الرئاسة، فقط لرفعتها. ويزداد الخطر أيضاً إذا كان العلماء هم طالبو الرئاسة لوجاهتها، لما يحمل ذلك من شُبهة في أمر الدين

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) ميزان الحكمة: ح٦٧٢١، ومجموعة ورام: ج٢، ص٢٠٥.

والإخلاص والنيَّة واليقين والتوجّه والعشق، ولذا كان تحذير عليٍّ عليه السلام في غرر الحكم حيث قال: «آفة العلماء حب الرئاسة»[١].

«اللهم صلِّ على محمَّد وآله، واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعمِلْني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له، وأغنني وأوسِعْ عليَّ في رزقك، ولا تفتني بالنظر، وأعزَّني ولا تبتليني بالكِبْر، وعبِّدني لك، ولا تُفْسد عبادتي بالعُجْب، وأجْرِ للناس على يديَّ الخير، ولا تمحقه بالمن، وهب لي معالي الأخلاق، واعصِمْني من الفخر اللهم صلِّ على محمَّد وآله ولا ترفعني في الناس درجةً إلاَّ حطَطْتني عند نفسي مثلها، ولا تُحدِث لي عزّاً ظاهراً إلاَّ أحدثت لي ذلّة باطنةً عند نفسي بقدرها»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: ح٦٧١٨، وغرر الحكم: ح٢٤٠.

(٢) الصحيفة السجَّادية: من دعاء مكارم الأخلاق، ص٩٢، الدعاء ٢٠.

الخوف من الله تعالى

يتميَّز المؤمن عن غيره من الناس بخوف من الله سبحانه. . . فالإيمان في حقيقة أمره، هو حالة خوفٍ ووجلٍ من الله سبحانه، حيث الحرص على اجتناب الحرام، والشعور بالمراقبة الإلهية الدائمة.

هل هناك إيمانٌ بلا خوف؛

ولا يُتصوَّر الإيمانُ الحقيقيُّ دون خوفٍ واتّقاء لغضب الله سبحانه، بل كُلَّما عظم الإيمان وَوَقر في القلب أكثر، كُلَّما تعاظم إلى جانبه الخوف من اقتراف معصية أو ارتكاب ذنبٍ أو مخالفة أمرٍ إلهي.

وهذا الخوف من رب العباد سبحانه وتعالى يعني أن شخصية المؤمن الخائف الراهب الراغب، هي شخصيةٌ تختلف عن غيرها، فبإمكانها أن تمتنع أو تُمسك عمَّا حرّم الله سبحانه مهما كانت الشهوة كبيرةً والاندفاع عظيماً.

والخوف من الله سبحانه بالمعنى المتقدِّم، يجعل الإنسان لا يخاف من أحدٍ من العباد ما دام في طاعة ربّه عزَّ وجلَّ، فيكون الخوف من الله بالنسبة إليه عزّاً يفتخر به.

وورد عن علي عليه السلام قوله: «الخشية من عذاب الله شيمة المتّقين»[١]. فأينما كان المؤمن الورع التقي، حتى ولو كان لوحده، فإنه يستحضر مراقبة الله له،... وهذا دليل الإيمان بالغيب، فيخشى الله سبحانه في السرّ، كما في العلانية وأكثر، بينما المنافق هو الذي يصطنع الخوف في العلانية دون السر.

وهذا الخوف، كان أمير المؤمنين عليه السلام قد أوصى به ابنه الحسن عند الوفاة في قوله: «أوصيك بخشية الله في سرِّ أمرك وعلانيتك»[٢].

الخوف أمام سلطان الله عزّ وجلّ:

وهكذا كُلَّما ازداد علم المرء بأسرار الحياة، ونواميس الكون، وسنن التاريخ، وعظمة الخالق، كُلَّما زاد خشوعه نتيجة معرفته لشمول العلم الإلهي لكل دقيقٍ وخطيرٍ من الأمور، حيث إنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض أو ما تُخفي الصدور، وتحتفظ به العقول. فمن عَرَف الدنيا وزوالها، والحياة وفناءها، والأيام والليالي وسرعة تقلُّبها، والأموال والأملاك واندثارها... فإنه يسلو عن الشهوات لعلمه أن الدنيا مهما طالت فهي زائلة، وتبقى الآخرة له، إمَّا نعيمٌ دائم، وإمَّا جحيم قائم.

يزيد في الإيمان:

ومن ازداد علمه بالله سبحانه، عرف أكثر، حقَّ العبودية والتذلّل، واستغرق في أصناف العبادات والطاعات، وسلك في طريق

---

(١) ميزان الحكمة: ح٥١٨١، وغرر الحكم: ح٣٦٦٨.
(٢) ميزان الحكمة: ح٥١٨٥، وبحار الأنوار، ج٤٢، ص٢٠٢، باب ١٢٧.

القربات، واشتاق إلى رب الأرض والسماوات، وعبَّر عن شوقه بعميق الآهات، وآذته المعصية، وخوفته الموبِقَة، وأقلقته الخيانة... وأدرك أن الطاعة وحسن العبادة ركنٌ ركين، لا يخسر من لجأ إليه. فيتدرّج في الطاعات، ويقترب أكثر، من الرِّضا الربَّاني، والتسليم في كل الأمور... ولم يتعلق بالدُّنيا.

يقول علي عليه السلام: «إنَّما العالم من دعاه علمه إلى الورع والتقى والزهد في عالم الفناء، والتوله بجنَّة المأوى»[١]. وقال لقمان الحكيم، لابنه «للعالم ثلاث علامات: العلمُ بالله، وبما يحب، وما يكره»[٢].

ليس عالِماً مَنْ لا يخاف الله جلّ جلاله:

فالعالِم، بحسب مصطلحنا الإسلامي، هو الذي يؤدي به العلم إلى العبادة والخوف والخشوع، أيّاً كان نوع اختصاصه أو مجال بحوثِهِ... فالمهم أن يكون علمه طريقاً إلى حسن التعبُّد والعبودية، وليدُلَّ الآخرين على عظمة الخالق، ودقَّة خَلْقه وإبداعه، وأن يعمل لهداية الآخرين وإرشادهم بواسطة معلوماته وأبحاثه...

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٣].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كان بالله أعرف، كان من الله أخوف»[٤]. وكيف لا يكون المؤمن خائفاً وهو لا يدري ما يَصنع

(١) ميزان الحكمة: ح١٣٦٢٩، وغرر الحكم: ح٢٥٠.
(٢) ميزان الحكمة: ١٣٦٣٥، وبحار الأنوار: ج٨، ص٢١٠، باب ٦.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٤) ميزان الحكمة: ح٥١٩٥، وبحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٩٣، باب ٥٩.

الله سبحانه بأعماله المتقدمة؟ وكيف لا يكون خائفاً، وهو لا يدري هل يُدرك أياماً أخرى يستزيد فيها من الخيرات؟ أم يُثقَلُ أكثر بالتبعات؟ وما إذا كان المتبقي من أيام حياته للزيادة من الخير، أو للزيادة من الشر؟

فهو خائف على كل حال، كما جاء في بعض النصوص المباركة، عن الأنبياء والمعصومين عليهم السلام: أن المؤمن لا يُصبح إلاَّ خائفاً، ولا يُصْلحه إلاَّ الخوف. فسبحان الله: كأنَّ الخوف علاجٌ ودواءٌ للمؤمن من بني آدم، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا وإنَّ المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجلٍ قد مضى، لا يدري ما الله صانعٌ فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشَبيْبة قبل الكِبَر، وفي الحياة قبل الممات، فوالله الذي نفس محمَّدٍ بيده، ما بعد الدُّنيا من مستعتب، وما بعدها من دار، إلاَّ الجنَّة أو النَّار»[١].

وبقدر ما يكون في قلب المؤمن من خوف، يكون الرجاء أيضاً، حيث إن رحمة الله الواسعة لكل شيء تجعل العبد يرجو ربّه سبحانه، كما أن عقاب الله يوجب الخوف، فقد روي عن الصادق عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنَّه يشرف على النَّار، ويرجوه رجاءً كأنَّه من أهل الجنَّة...»[٢].

بذلك يتأرجح المؤمن بين الخوف والرجاء فيكون خائفاً حذِراً مُتيقظاً مُتنبهاً لكل موقفٍ وكلمة وقرار يصدر عنه، ويكون راجياً لا

---

(١) ميزان الحكمة: ح٥٢٠٠، والكافي: ج٢، ص٧٠، ح٩.
(٢) ميزان الحكمة: ح٥٢٠٥، ووسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٣٠، باب ١٦، ح٤٦٢.

يتكل على عمله وصنعه، بل يكِلُ كلَّ أموره إلى بارئه وخالقه الذي منه الابتداء وإليه الانتهاء، وهو نعم المولى ونِعْم النصير.

وروي عن رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنَّة أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنَّة أحدٌ»(١).

أما سيِّدنا لقمان عليه السلام فيوصي ابنه بقوله له: «خَفِ الله عزَّ وجلَّ خيفةً لو جئته ببرِّ الثقلين لعذبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمَك»(٢).

الخوف مُعين:

ومن علامات الخائف من الله عزَّ وجلَّ، أنه يستغل تمام أيام عمره، ولحظات حياته، ليملأها بما يُرضي الله سبحانه، فلا يُصيبه تعبٌ ولا نَصَبٌ ولا وهَنٌ، لأن صعوبة الطريق ومشاقها تزول عندما يتذكر أنَّ عمله هذا في عين الله تبارك وتعالى،... فيعمل وهو خائف من جهة، ومتكلٌ ومطمئنٌ من جهة أخرى لاطّلاع رب العالمين على ما يقاسي ويعاني، إذ يقول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾(٣).

---

(١) ميزان الحكمة: ح٥٢٠٤.

(٢) ميزان الحكمة: ح٥٢٠٩، والكافي: ج٢، ص٦٧، ح١.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠ و١٢١.

ولا يكتفي المؤمن بقدر معينٍ من العمل الصالح، بل يعلم أن ذنوبه في جنب ربه تعالى، عظيمة وجليلة، وبحاجة إلى ما يوازيها من أعمالٍ لتوازيها، وتتفوَّق عليها، فلا يرضى بحد، ولا يتوقف أبداً، وهذا من حقيقة الإيمان وصدقه، كما يقول الصادق عليه السلام: «لا يكون العبد مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[١].

علاماته:

ومن علامات الخائف الراجي أيضاً، أنه قليل الكلام، كثير العمل، راجحُ الفكر، صاحب عقلٍ... لا يشعر بأنه أدَّى حقَّ ربِّه، بل يتَّهِمُ نفسه دائماً بالتقصير، حتى ولو أكثر العمل، مشغولٌ بهمِّ نفسه، مُستغرق في آخرته، يُفتش عن أنجح السُّبُلِ لسلوكها، وعن أقصر الطرق لبلوغها، ويكون ممن وصفهم علي عليه السلام في قوله: «إنَّ لله عباداً كسرت قلوبهم خشية الله، فاستكفوا عن المنطق، وإنَّهم لفصحاء عقلاء، ألبَّاء نبلاء، يسبقون إليه بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له القليل، يرون أنفسهم أنهم شرار، وإنَّهم الأكياس الأبرار»[٢].

ولا بد من الإشارة إلى أن من أهم الأمور التي تُوفِّق لاستشعار الخوف من الله سبحانه، هو مخالفة الهوى، فمخالفة الهوى تعصم المرء من المعاصي، وتردعهُ عن الذنوب، كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[٣].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في توضيحه للآية الكريمة ﴿وَلِمَنْ

---

(١) ميزان الحكمة: ح٥٢١٥، وبحار الأنوار: ج٦٧، ص٣٩٢، باب ٥٩.

(٢) ميزان الحكمة: ح٥٢١٦، وبحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٨٦، باب ٣٧.

(٣) سورة النازعات: الآيتان: ٤٠ و٤١.

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1] يقول عليه السلام: «من علم أنَّ الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه، ونهى النفس عن الهوى»[2].

والمقصود بعدم فعل القبيح من الأعمال، أي عدم ارتكاب المُحرَّم، كبيراً كان أم صغيراً، لأن من تجرأ على فعل الصغير ابتداءً، يتجرأ على فعل الكبير في مرحلة لاحقة، فليس المهم حجم المعصية، بل مَنْ عصيته سبحانه وتعالى... وإنَّ المعصية، كبيرة كانت أم صغيرة، كما يقول علماء الأخلاق، هي معصية محرّمة على كل حال، ويستحق فاعلها العقاب... لأنَّ المعاصي مهما كانت متناهية في الصغر، إلاَّ أنَّها بمجرد الشعور بقلّتها، والاستخفاف بها هو بحدٍّ ذاته كبيرةٌ، فالاستخفاف بالمعاصي كما قرر أهل الخبرة يجعل الذنب الصغير من الكبائر، وهذا ما قصده الرِّضا عليه السلام حيث قال: «... من لم يَخَفِ الله في القليل، لم يخفه في الكثير»[3].

وعلى هذا، فالخوف يجب أن يشمل كلَّ الحالات، لا حالة دون حالة أخرى كما يسوِّل الشيطان الرجيم.

قوةٌ إضافية:

وتبقى الإشارة إلى أنَّ الخوف من الله سبحانه يُكسِب صاحبه قوَّة إضافية، فهو لا يخشى إلاَّ الله فقط، وكلّ الأمور تحت سلطة الله، وأسبابها بيده، فيجعله الله سبحانه آمناً من كل شيء، ويُخوِّف الأشياء منه. كما ورد عن الصادق عليه السلام: «من خاف الله عزَّ وجلَّ،

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) ميزان الحكمة: ح٥٢٣٣، والكافي: ج٢، ص٧٠، ح١٠

(٣) ميزان الحكمة: ح٥٢٧٥، وبحار الأنوار، ج٦٨، ص١٧٤، باب ٦٤.

أخاف الله منه كلَّ شيء، ومن لم يخف الله عزَّ وجلَّ أخافه الله من كل شيء»[١].

اللّهم صلِّ على محمَّد وآله، واجعلنا من الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممَّا رزقهم الله ينفقون. «إلهي هل تُسوِّد وجوهاً خرَّت ساجدة لعظمتك، أو تُخرسُ ألسنة نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك، أو تطبع على قلوب انطوت على محبّتك، أو تُصم أسماعاً تلذذت بسماع ذِكرك في إرادتك...[٢].

(١) ميزان الحكمة: ح٥٢٣٧، والكافي: ج٢، ص٦٨، ح٣.
(٢) من دعاء كميل، انظر بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٣، باب ٣٢.

ذكر الموت

الحمد لله رب العالمين الذي كتب على كل نفس أنها ذائقة الموت، وأنَّا إليه راجعون، وجعل ذلك حقيقة يسلّم بها كلُّ البشر، ويستسلمون للموت الذي لا محالة أنَّه واقع بنا شئنا أم أبينا، وافقنا أم رفضنا.

الموت يسير بنا:

ذلك أنَّ الموت أمر يُقر به كلُّ العقلاء حتى ولو لم يكونوا مؤمنين، لاعتقادهم أنَّ كلَّ حي له نهاية حتمية... وأنَّ الوقت الذي يمر، ودون توقف، يُعجِّل بنا إلى أجلنا ولا يمهلُنا لآنٍ محدود، ولا هُنَيْهة بسيطة، لنلتقط أنفاسنا... فيعمل بنا وإن لم نعمل به... بل إنَّ الوقت يعمل بنا حتى ولو كُنَّا نائمين...

لا تنفع الظروف والخصوصيات:

والإنسان عبر التاريخ يقف عاجزاً أمام هذه الحقيقة اليقينية، المسرعة به إلى أجله، الحاملة له إلى مصيره، والتي لا تقيم وزناً لظروفه الخاصة، أو تقصيره العظيم أو استغاثته اللاهفة، فها هي اللحظات تمر بسرعة، وكذلك الساعات... وتتبعها الليالي والأيام والسنون... فيتهاوى صرح العمر وإن كان عظيماً، ويذوب وإن كان كبيراً كما يذوب الملح في الماء.

لذلك اعتُبِر الواحد منَّا في حالة سفر دائمةٍ لا تتوقَّف... وبناءً على هذا كُلَّما زاد العمر ساعة كُلَّما اقترب المرء من أجله بقدرها... وكُلَّما مضت لحظة من لحظات حياته كُلَّما نقص من أجله لحظة... ولهذا اعتبر العمر قصيراً مهما كان طويلاً، ما دامت رحلة الألف ميل قد بدأت، والعد العكسي ينذر بالانتهاء.

ولعلَّ أفضل من عبَّر عن هذه الحالة الشعورية الحسَّاسة التي تنال كلّ إنسان، منفرداً على حدة، في أثمن ما يملك، وما لا يعوَّض أبداً... أفضل من عبَّر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجله»[١].

فكأني به عليه الصلاة والسلام يشبّه النفس الضروريَّ لحياة كل إنسان، والذي لا بدَّ منه، يشبّهه بخطوة الماشي الذي يقترب إلى مقصده، كُلَّما تقدم خطوة إلى الأمام، وحيوان مفترس وراءه... فهو من جهة لا يستطيع التوقف... ومن جهة أخرى لا يستطيع تضييع الوقت... ومن جهة ثالثة يرى أنَّه دائماً يقترب من أجله أكثر... وبتعبير أدق: يقترب من نهاية عمره أكثر...

وفي مثل هذه الحالات، لا يستطيع الإنسان أن يغض الطَرْف أو ينسى، أو يغفل عن المآل والمصير...

صحيح أنَّه لم يمت من قبل، إلاَّ أنَّه يرى الموتى في كل يوم، وقد فارقوا الأهل والأحبَّة... قال علي عليه السلام في نهج البلاغة: «عجبت لمن نسي الموت، وهو يرى الموتى»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٨٧٧٨، وغرر الحكم: ح٣٢١٧.
(٢) المصدر نفسه: ح١٨٧٧٤. نقلاً عن نهج البلاغة: حكمة ١٢٦.

نالناس الذين كانوا معنا، في المجالس والأعمال والأفراح والأتراح... من الأهل والجيران والأصحاب والأحباب، والأجداد والجدات... كلهم فارقونا اليوم...

كلُّنا، سابقون ولاحقون:

فما من واحد منَّا إلاَّ وله عزيزٌ على الأقل خطفه الموت فجأة... فإذا بنا نتذكّر الكلمات والجلسات، والمواقف والأعمال، والقصص والابتسامات... ونعلم لا شعورياً بأننا به لاحقون، وإن لم نتهيّأ لذلك، ولم نستعدَّ كما ينبغي، لأن اللهو والعبث واللعب والطمع تبقى هي الأقوى والأكثر جاذبية في هذه الدُّنيا وعند النَّفس الأمَّارة بالسوء والغفلة.

ولنا أن نتساءل: هل أن طمعنا بالدنيا يغنينا ويُسعدنا ويُبعِّد الأجل؟! وهل أن غفلتنا عن الآخرة وخصوص الموت، تجعله يغفل عنَّا؟!

كلُّنا يعرف الجواب الصحيح الواضح... وللتوضيح أكثر، نستمع إلى وصية علي عليه السلام في نهج البلاغة، قائلاً: «أوصيكم بذكر الموت، وإقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتُكُم عمَّا ليس يُغْفِلكم، وطمعكم فيمن ليس يُمْهِلكم، فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم[(١)]»[(٢)].

والمؤمن الملتفت إلى مصيره وآخرته، وإلى الثواب والعقاب، لا يسهو عن الموت وعن ذكره، والتأدب به، والشعور بالمراقبة، والحيطة والحذر في كل قول وفعل... وهذه الحالة إن وقعت، تؤثر

---

(١) أي شاهدتموهم ورأيتموهم.

(٢) ميزان الحكمة: ح١٨٨٥١، ونهج البلاغة: خطبة ١٨٨

على حياته بتفاصيلها وجزئياتها، وتؤثر على آخرته أيضاً، إن لم تكن هي الصانعة لمصيره.

فها هو الحبيب المصطفى ﷺ سيِّد الخلق أجمعين، يعظ أصحابه، بالإكثار من ذكر الموت، ويُطلق عليه اسم هادمِ اللذات، مع ما يحمل هذا الإطلاق من معانٍ ودلالات وإشارات... وعندما يُسأل ﷺ: وما هادم اللذات يا رسول الله؟... يقول: الموت، فإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذِكراً للموت، وأشدُّهم له استعداداً[١].

هادم اللَّذات دواء لكلّ داء:

فمن أراد القناعة، عليه بذكر الموت... ومن أراد الغِنى، عليه بذكر الموت، ومن كثرت عليه الهموم عليه بذكر الموت، ومن ضاقت الدنيا به عليه بذكر الموت، ومن أراد الزّهد بالدُّنيا عليه بذكر الموت، ومن أراد تهذيب نفسه، وسعى في تأديبها، ومن أراد الورع والتقوى والخشية، ومن رغب في الشجاعة والإقدام، ومن اشتاق للقاء ربّه سبحانه، ولم يَعُدْ يصبر على البعد عن الأحبَّة محمَّدٍ وآله ﷺ... فعلى كل هؤلاء أن يُكثروا من ذكر الموت...

ومن طلَّق الدُّنيا، أو أراد ذلك، ومن سعى للإخلاص في نيّته، ورغب في إماتة شهوته، وتقوية قلبه، وأرهقته ذنوبه، وأتعبته نفسه، وشقَّت عليه مصائب الزمان... ومن أراد الراحة بلقاء ربّه فعليه بذكر الموت، فقد روي عن الصادق عليه السلام قوله: «ذكر الموت يميت الشهوات في النَّفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوّي القلب بمواعد الله، ويُرِقُّ الطبع، ويكسِرُ أعلام الهوى...»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٨٨٥٢، وبحار الأنوار: ج٧٩، ص١٦٧، باب ٢٠.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٨٨٤٨، وبحار الأنوار: ج٦، ص١٣٣، باب ٤، نقلاً عن مصباح الشريعة.

وروي عن علي عليه السلام: «من ذكر الموت رضي من الدُّنيا باليسير»[١].

وفي الزبور: «من فزَّع نفسه بالموت هانت عليه الدُّنيا»[٢].

كل الأمور نهايتها إلى الموت:

وهكذا، فإنَّ المؤمن هذا، تُصبح نظرته للدنيا نظرة أخرى، ويُصبح إنساناً آخر في نظرته للأمور والمواقف، والجهاد والعز، والنصر والهزيمة، والمصائب والمال، والمتاع والزوجة والقضاء والقدر... بل إنَّ نظرته لما يدور حوله تختلف أيضاً، في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية... فيرى الأمور مجدداً من خلال شوقه للقاء ربّه، ومن خلال آخرته... لا بمنظار الدنيا القاصر المحدود... فيشعر بمنتهى الاطمئنان والسكينة والراحة، فلا خوف ولا وجل ولا هلع ولا قلق من المستقبل والناس... فغاية الأمور إلى الموت، وهو مشتاق إليه قد حَسَب حسابه، وتأهّب له.

فيا أخي المؤمن، إذا أردنا الدنيا العزيزة الكريمة، فلنستعد للموت، لتوهب لنا الحياة. وإذا أردنا الآخرة العالية، فلنستعدَّ للموت، لتوهب لنا الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٣].

---

(١) ميزان الحكمة: ح١٨٨٤٦، وغرر الحكم: ح٢٦٥٠.
(٢) ميزان الحكمة: ح١٨٨٤٥، وبحار الأنوار: ج٧٤، ص٣٩، باب ٢.
(٣) سورة يونس، الآيات: ٦٢ ـ ٦٤.

لحظة الفراق:

وإنَّما يكون هذا بتذكر اللحظات الحرجة التي لا مناص منها، تلك اللحظات الأخيرة الوداعية التي تكون بلا شك، الأكثر أهمية في حياة ابنِ آدم، حيث يقع بين أهله صريعاً، ولا حبيب ينفع، ولا طبيب يدفع... يتذكر الأيام والليالي... ويتذكر المظالم والحقوق، والأموال والمكاسب، والأمانات والأوقات، والمعاصي والشهوات،... يتذكر الفراق، والأحبَّة، والوداع... ومن بذل الوقت والجهد لراحتهم، فيتمتعون بما كسب، ويتنعّمون بما سعى... فهم يترفّهون بأمواله، وهو يحاسب عليها.

يتذكر الصغيرة والكبيرة، والشاردة والواردة، والطمع والأذيَّة، والرياء والحسد،... ويعلم أنه خرج من الدنيا دون تحقيق آماله... فتطول حسرته، ويشتد ألمه... وهو في هذه الحال يزداد ضعفاً ووهناً وتسليماً... فيتأسّف ويتحسَّر، ويفتّش عن اللحظات، ويتمنّى الإمهال، ليستدرك الإهمال... ولكن هيهات هيهات لما يتمنَّى.

ويصف أمير المؤمنين عليه السلام حال هؤلاء بوصفٍ فيه الموعظة لنا والعِبرة، فيقول: «اجتمعت عليهم سكرة الموت، وحسرة الفوت، فَفَتَرت لها أطرافهم، وتغيَّرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع بأُذُنه، على صحة من عقله، وبقاءٍ من لُبِّه، يُفكِّر فيمَ أفنى عمره، وفيمَ أذهب دهره، ويتذكر أموالاً جمعها... قد لزمته تَبِعات جَمْعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المَهْنأ لغيره، والعِبْءُ على ظهره...».

ثم يتابع الأمير عليه السلام تصوير حال المحتضِر، حتى كأنه أمامنا،

ليبالغ في الموعظة، ويُتم الحجَّة... فيقول واصفاً حاله إذا اشتد به الأمر: «... يزهد فيما كان يرغب فيه أيام عُمُرِه، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونَه، فلم يزل الموت يُبالغ في جسده، حتى خالط لسانه سَمْعَه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمْعِه: يُردِّد طَرْفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتِهِم، ولا يسمعُ رَجْعَ كلامهم، ثم ازداد الموت التياطاً[1] به، فقُبض بصره كما قبض سَمْعُه، وخرجت الرُّوح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يُسعد باكياً، ولا يجيبُ داعياً...»[2].

وختاماً: هل من متّعظ بهذه الموعظة؟! وهل من مستعدٌ لهذه اللحظة؟ لحظة الفراق التي تنتظرنا جميعاً، عاجلاً أم آجلاً!...

---

(١) التصاقاً.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٩.

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، المؤتمر للشيخ المفيد، قم، ١٤١٣هـ.ق.

٢ ـ بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤٠٤ هـ.ق.

٣ ـ تحف العقول، الحسين بن شعبة الحراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٤ هـ.ق.

٤ ـ ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، دار الرضي للنشر، قم، ١٤٠٦هـ.ق.

٥ ـ جامع الأخبار، تاج الدين الشعيري، دار الرضي للنشر، قم، ١٤٠٥ هـ.ق.

٦ ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، مكتبة آية الله المرعشي، قم، ١٤٠٤هـ.ق.

٧ ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسن عليه السلام، نشر الهادي، قم، ١٣٧٦هـ.ش

٨ ـ علل الشرائع، الشيخ الصدوق، مكتبة الداوري، قم.

٩ ـ عوالي الآلي، ابن أبي جمهور الأحسائي، دار سيد الشهداء عليه السلام، قم، ١٤٠٥هـ.ق.

١٠ ـ غرر الحكم، عبد الواحد بن محمد التميمي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٣٦٦هـ.ش.

١١ ـ الكافي، ثقة الإسلام الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥ هـ.ق.

١٢ ـ مجموعة ورام، ورام ابن أبي فراس، مكتبة الفقيه، قم.

١٣ ـ المحجة، المحدّث الكبير محسن الكاشاني، الحوزة العلمية في قم

١٤ ـ مستدرك الوسائل، المحدّث النوري، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٨هـ.ق

١٥ ـ مشكاة الأنوار، علي بن الحسن الطبرسي، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٥هـ.ق.

١٦ ـ مصباح الشريعة، الإمام جعفر الصادق عليه السلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٠هـ.ق.

١٧ ـ مصباح الكفعمي، إبراهيم بن علي الكفعمي، دار الرضي، قم، ١٤٠٥هـ.ق.

١٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٩ ـ مكارم الأخلاق، الحسن بن الفضل الطبرسي، دار الشريف الرضي، قم، ١٤١٢هـ.ق.

٢٠ ـ ميزان الحكمة، الشيخ المحمدي الري شهري، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم.

٢١ ـ نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، دار الهجرة للنشر، قم.

٢٢ ـ وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحرّ العاملي، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٩هـ.ق.

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ سلسلة آداب السلوك في الإسلام (٩ أجزاء)	طبعة ثانية
٢ ـ سبيلُ الرشاد	طبعة ثانية
٣ ـ زُبدة الأربعين حديثاً	طبعة ثالثة
٤ ـ وسوسة الشيطان الرجيم	طبعة ثانية
٥ ـ قَبساتٌ من نهج البلاغة	طبعة ثالثة
٦ ـ حديثُ السحر	
٧ ـ أختاه	طبعة ثامنة
٨ ـ أخي الحبيب	طبعة خامسة
٩ ـ أخلاق النَّبي	طبعة رابعة
١٠ ـ همساتٌ للآخرة	طبعة رابعة
١١ ـ قال علي	طبعة ثالثة
١٢ ـ صفاتُ اليهود	طبعة ثالثة
١٣ ـ نهجُ الصالحين	طبعة خامسة
١٤ ـ قلوبٌ تهوي إلى عرفات	طبعة رابعة
١٥ ـ آداب اجتماعية	طبعة ثالثة
١٦ ـ أبتاه	
١٧ ـ أخي المعلّم	
١٨ ـ الاسم الميمون لِقُرَّة العيون	طبعة ثالثة
١٩ ـ وصيَّةُ المسلم	طبعة خامسة

٢٠ ـ هل انتهى دور العلماء؟! — طبعة ثانية
٢١ ـ أشهُرُ العبادة (رجب . شعبان . شهر رمضان) — طبعة ثانية
٢٢ ـ لِمَ لا نخشع في الصلاة؟! — طبعة ثالثة
٢٣ ـ لماذا يضعف الإيمان؟ — طبعة ثالثة
٢٤ ـ الفريضة المهجورة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — طبعة ثانية
٢٥ ـ وجوبُ دعوة النَّاس إلى الإسلام — طبعة ثانية
٢٦ ـ عندما انتقلنا: من الدفاع إلى الهجوم — طبعة ثانية
٢٧ ـ مُسْتَحَبَّات وسُنن — طبعة ثانية
٢٨ ـ كيف تواجه المصائب؟ — طبعة ثالثة
٢٩ ـ المنجد في معالم مكة والمدينة
٣٠ ـ إرشادات الحج — طبعة ثانية
٣١ ـ أخلاق التاجر المسلم
٣٢ ـ آثار الأعمال وثمراتها
٣٣ ـ الموضة والموقف الشرعي منها
٣٤ ـ في طريق السالكين
٣٥ ـ تعدُّد الزوجات.. كرامة أم خيانة؟
٣٦ ـ رسالة إلى ابنتي وأخواتها، لمناسبة زواجها
٣٧ ـ عندما بلغت الأربعين
٣٨ ـ كيف تكون أعراسنا شرعية
٣٩ ـ عتاب الأحباب
٤٠ ـ سُنن وأحداث